

أساليب القرآن الكريم في معالجة النفس الإنسانية

د. محمد فتحي الدريني

منهج البحث مفصلاً وموجهاً :

أولاً - المقدمة :

أ - امكانية الامتزاج المؤتلف بين المثل العليا رسالة ، وبين مقومات الكيان البشري فطرة ، هي مناط تحقق « الخيرية » المستوجبة للريادة والقيادة للأمم ، بصريح النص القرآني ، فضلاً عن وجوب التآسي والاقتداء .

ب - الاستعداد الفطري هو منشأ امكانية تحقيق ذلك الامتزاج بين معاني الوحي ، ومفاهيمه الكبرى ، وبين مقومات الكيان البشري ، بحيث تغدو تلك المفاهيم « سجايا روحية » تتهاوى أمامها سائر الاعتبارات والمنافع المادية الخاصة عند التعارض ، بدليل أنها أخرجت لنا « شخصيات عالمية » غيرت مجرى التاريخ بما يشبه المعجزات ، لما كان لها من فاعلية جبارة ، أثراً لتلك السجايا .

ج - قوة أثر هذا الامتزاج المؤتلف بين « حقائق » الاسلام ، و « بصائره » و « بيئات » هداة من جهة - مما أطلق عليه القرآن الكريم كلمة « الحق » في مثل قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » - وبين فطرة التكوين ، من جهة أخرى ، أقول : أن قوة أثر هذا الامتزاج المؤتلف بينهما ، تبدو فيما أطلق عليه القرآن الكريم « الفرقان » النفسي بقوله تعالى : « ان تستقوا الله يجعل لكم فرقاناً » وهو في حقيقته ، « ملكة » مدركة مميزة تتأصل في الكيان المعنوي للإنسان ، ثمرة للتعمق في ادراك تلك الحقائق ، والاحلاص في الالتزام العقائدي بها ، ليتأتى تنفيذها على الوجه الأكمل ،

ثم الحرص على أداء مقتضياتها ، دون تعيّل ، أو تعرّف أو انتقاص ، بل امتثالاً طوعياً لأمر الله تعالى ، ولا معنى «للتقوى» في المفهوم القرآني التي تؤصل هذا الفرقان النفسي، إلا هذا، وأعني به تلك «الملكة المدركة المميزة المقتدرة التي تمكن صاحبها من التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحكمة والهوى ، بما يطابق «الفرقان» المنزل وحياً ، وتستوي هذه الملكة ظهيراً للعقل الفطري الأول ، فكانت تلك «الملكة» ثمرة جنيّة لأسلوب القرآن الكريم في تنمية ملكات النفس الانسانية ، ومداركها ، واستثمارها •

د - كون الاسلام خاتم الرسالات ، يستلزم بالضرورة هذا الامتزاج والتطابق بين الفطرة وهذا الدين ، تفسيراً منطقياً معقولاً لانقطاع الوحي •

هـ - سرّ ديمومة تأثير توجيهات القرآن الكريم ، ونجاعة أساليبه في معالجة النفس الانسانية ، واستمرارية صلاحية الاسلام - ديناً وتشريعاً - لكل زمان ومكان - سر ذلك ، أن أصوله العامة ، وفروعه المقطوع بها ، قد ثبت أنها تتعلق بالمصالح الانسانية الثابتة التي تعتبر من مطالب الفطرة ، وحاجتها الدائمة •

و - ما قيل آنفاً في أساسيات القرآن الكريم ، وأصوله العامة الثابتة ، وقواطع النصوص فيه - من الناحية الايجابية - هو مقول في «نقائض» تلك الأصول من الجرائم ، والمعاصي ، والمنكرات ، وكبائر الأثم ، من الناحية السلبية •

ز - الاسلام يحفل بالدنيا ، وبما في الكون من ماديّات ، بل ويبحث على الاقبال عليها ، استدلالاً ، وبحثاً علمياً ، وتصرفاً ، وانتفاعاً ، ولا تكون الدنيا متاعاً للفرور الا حين يرفع متاعها فوق «القيم» وتستبدل بالانسان أهواؤه ، فتفقد وعيه لذاته الانسانية ولأبعاد رسالته في هذا الوجود •

ح - منشأ خطورة التحريم في الاسلام ، أنه خوطب به الرسل ، على الرغم من عصمتهم ، اشارة الى أنه لا يتسامح فيه مع أحد ، ولو كان رسولا مصطفى ، لاتصاله بعمران العالم ، واستقامة أمر المجتمع ، قوة ومنعة ، وتقدماً ، وانسانية •

ط - التحريم تدبير الهي حكيم ، وأسلوب ضروري لتوجيه فاعلية الانسان في رفعه القواعد من الحياة الانسانية ، حيث أفرغه الله تعالى في تشريع أمر ملزم بالانتهاء ، حماية للإنسان نفسه من افساد فطرته ، وتدسيثها بالمعصية ، وتبصيراً له بمآلات الغواية ، وانتهاك الحرمات ، أو رداً له الى سلامة فطرته ، وتنمية لطاقتها ، بغية تمكينه من استثمارها على أكمل وجه ، وهو بسبيل أداء تكاليفه الشاقة ، وليس التحريم مصادرة للارادة الانسانية الحرة ، تحكماً واعنائاً ، ثم هو آخر الأمر وقاية للمجتمع البشري كله من أن يؤول به الفساد الى سوء المصير ، طبقاً لسنة الله تعالى المطردة النافذة في هذا الوجود •

ي - التحريم كما يجري في « الماديات » التي هي على النقيض من « الطبييات » هو جارٍ أيضاً في « المعنويات » بما هي « نقائص » « القيم » - وبذلك « تتكامل » الوسائل المتخذة - مادياً ومعنوياً - و « تتكافل » في معالجة النفس الانسانية ، وتوجيه قواها ، رصداً لها ، لتدبير المجتمع البشري على نحو يصون كيانه المادي والمعنوي على سواء ، بل ان وسائل وقاية الكيان المعنوي للأمة ، أن تتطرق اليه عوامل الوهن ، وإزالة كافة العوائق - من أسباب التخلف الروحي ، والفكري والعلمي والخلقي ، مما يعترض سبيل ارتقائها صنعاً في معراج التقدم والازدهار - أبلغ أثراً في تحصينها من العوادي الحسية المادية المؤثرة في توهينها ، أو النيل من بنيانها الحضاري .

ك - الأعراف الطارئة باطلاق - ما كان منها على الصعيد الدولي أو الداخلي - أو التقاليد الموروثة المستحكمة ، لا تقوى على تغيير « أساسيات » الاسلام ، وأصوله العامة الثابتة اذا كان بينهما تناف ، أو تضاد ، ولا يجوز استبدالها بها ، لأن التشريع الاسلامي ليس محكوماً بالأعراف المتغيرة ، أو التقاليد الموروثة ، اذا كانت منافية ، مهما استحكمت معاقدها في النفوس ، واستوثق أمرها في المجتمع ، أو استقر على الصعيد الدولي ، وبذلك تأصلت أسس « الوحدة التشريعية » للأمة في كل عصر وجيل .

ل - كثير من الأعراف والعادات السائدة والمنافية لأصولنا الثابتة في التشريع الاسلامي ، قد تسربت الى بلادنا بفعل « الاستهواء » النفسي ، من التيارات الأجنبية الوافدة ، دون تمحيص ، فعالجها الاسلام بوسيلة نفسية مماثلة من « الانكار القلبي الدائم » مع عقد العزم على التغيير اذا لم يستطع في الحال ، كيلا تجد لها في النفس مستقراً ، أو تصادف فيها هوى ، اذا االف حامل على الاعتياد ، وصارف - في الوقت نفسه - عن التبصر والتقدير والتقويم .

م - لا يقر الاسلام عرفاً أو تقليداً مهما كان مستحكماً في النفوس ، الا اذا كان يستند أساساً الى « مصلحة جديّة حقيقية معقولة ومعتبرة » بحيث تحافظ على مقصد من مقاصده الأساسية ، وبذلك كان ما يناقض ذلك من « العرف الصحيح » ، عاملاً فعلاً في تيسير سبل الحياة ، ثم هو بعد ، عنصر هام من عناصر التطور في الاجتهاد التشريعي في الفروع ، استجابة لمصالح الناس الى أبعد مدى .

ثانياً - عناصر البحث :

١ - تكييف طبيعة الفطرة الانسانية في القرآن الكريم ، تمهيداً لتبيين مدى ملائمة الأساليب التي اتخذها ، ونجاعتها في المعالجة .

اختلاف العلماء في تحديدها على آراء أربعة :

أ - طبيعة الفطرة الانسانية خيرّة ، لا أصل للشر فيها ، بدليل صريح منطوق النص القرآني ، من أن « الدين هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها » ، والدين خيرٌ كله ، فالفطرة كذلك .

ب - طبيعة الجبلة الآدمية مفطورة على « الاستعداد للخير والشر على سواء » ، بدليل أن الذي فطرها ، وهو الله سبحانه ، قد « ألهمها فجورها وتقواها » .

ج - أن الفطرة الانسانية ، وإن كان للشر منزع فيها ، بحكم غرائزها الدنيا ، غير أنها إلى خلال الخير أقرب ، بسمو الروح ، ولذا كان الانسان جديراً بالسياسة والملك ، وهو رأي ابن خلدون .

د - الامام الغزالي يصدر عن آراء متناقضة في تحديده لطبيعة الفطرة الانسانية في مواضع مختلفة من مؤلفاته .

هـ - ان الانسان مفطور على الشر في أصل جبلة ، ولذا كان مفتقراً أشد الافتقار إلى الهداية الالهية ، لتتولاه بالتوجيه ، والتهديب ، ولتكف من غلواء أهواءه وشهواته ، ودليل هذا الرأي ، قوله تعالى : « ان النفس لأماراة بالسوء ، الا ما رحم ربي » .

و - موقفنا ازاء ظواهر الآي المتعارضة ، واستخلاص مراد الشارع منها بالتوفيق بينها أصولياً ، وعلى ضوء من الروح العام للتشريع ، ونوجز أدلتنا فيما يلي :

١ - فرق بين « الحالات النفسية العارضة » التي تعترى الانسان عادة ، صدى لعوامل خارجية مؤثرة ، أو أثر السوء استخدام الانسان لقواه النفسية ، وبين « جوهر فطرته الانسانية » .

٢ - من المؤكد أن القرآن الكريم ، اذ يقابل « الدين بالفطرة » على أنه عينها ، أصالة وجوهر ، ويقرر أنه « الدين القيم » بالفطرة قيمة ، وأنه : « لا تبديل لخلق الله » فلا تبديل لشرع الله ، ضرورة ، مما يوحي أيضاً بأنه لا يجوز الخروج عن مقتضياتها ، لأنهما كليهما من صنع الله تعالى تشريعاً وتكويناً أقول : « ان القرآن الكريم ، اذ يعقد هذه المقابلة بينهما ، ويؤكد تلك القضايا ولوازمها المنطقية ، فانما يقصد إلى تبين وجه الحق في « جوهر الفطرة الانسانية » وأنها مفطورة أصلاً على الخير المحض ، لتتم المطابقة بينهما ، ويتحقق اليسر في التكليف ، اذ الدين خير كله ، ولا أصل للشر فيه ، فكذلك الفطرة ، ولو كان التناقض ، لما تأتى التكليف ، والتنفيذ الطوعي ، اذ لا يثبت الشيء مع ما ينافيه ، لاستحالة الامتزاج والاتلاف بين المتناقضين ، ولكان التكليف ضرباً من المحال ، فضلاً عن أن تكليف الفطرة الانسانية بكونها مجبولة على الشر أصلاً - كلياً أو جزئياً - أمر لا يتفق والمنطق الديني ، والروح العام للتشريع الاسلامي ، من قبل أنه قائم أساساً على « الحكمة البالغة » لقوله سبحانه : « قل فليته العجة البالغة » والعجة ' قوامها الحكمة ، وعلى رحمته سبحانه التي وسعت كل شيء : « ورحمتي وسعت كل شيء » (٢) : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣) ، وليس في طبيعة الشر المحض وخلاله ، « حكمة » أصلاً ، فضلاً عن أن تكون « بالغة » وليس في الشر من رحمة كذلك ، وهذا التشريع من جهة أخرى قائم أساساً

على « العدل المطلق » بل هو « غايته » القصوى ، وملاك أمره : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (٤) : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط » : « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، » وليس من معدن التريبتقى العدل ، أو الغير ، كما لا يتصوران يتحقق بينهما مواءمة ولا امتزاج ، فكيف يقع التكليف بالمحال ، وذلك ما لا يتسق ومنطق طبائع الأشياء •

على أن الفطرة من خلق الله ، ولا مدخل للشّر في صنعه ، سبحانه ، لأنه منزّه عن النقائص •

٣ - التنسيق بين معاني الآي التي تلونا أنفأ ، بما أشكلت ظواهرها ، حتى كانت منشأ تضارب آراء العلماء بصدد تحديدهم لطبيعة الفطرة الانسانية من خلالها ، ذلك التنسيق الذي يبين المراد الحقيقي للشارع منها •

٤ - ورود وصف الانسان بالنقائص ، وبصيغة المبالغة - في القرآن الكريم - لا يغير من حقيقة الفطرة شيئاً ، من حيث انها مفطورة على الخير المحض الذي لا مكان للشّر فيه أصلاً - كما قلنا - وأن ورود وصفه بذلك ينطوي - في الواقع - على سر بلاغي يدركه ذوو الاحساس المرفه بوجوه تصارييف البيان ، بما يتركه هذا الأسلوب البياني من وقع على الوجدان ، ومن أثريوحي بحقيقة المعنى المراد ، وهو هنا ، قائم على المجاز والتشبيه بالدليل الصارف ، لا على سبيل الحقيقة ، وبذلك يرتفع التعارض بين ظواهر الآي التي تؤصل خيرية الفطرة ، وبين تلك التي تصفه بالنقائص وصفاً مبالغاً فيه ، وأن صدوره عنها هو دأبه ، لأن هذه أوصاف عارضة ، بفعل ارادته ، ومحض اثاره للنقيصة على الفضيلة ، انحرافاً مقصوداً ، لا اضطراباً جيلياً ، مما لا علاقة له ببيان جوهر الفطرة اطلاقاً ، فتم بذلك التنسيق بينها على هذا الأساس •

٥ - الملحظ الدقيق الذي التفت اليه الامام الزمخشري ، في التنسيق بين ظواهر النصوص المتعارضة ، ينهض بالتوفيق بينها على نحو يؤكد أصل « الخيرية » في الفطرة الانسانية •

٦ - توجيه « المسؤولية » - الدينية والدنيوية - على النقائص ، وكبائر الاثم ، اهمالاً للملكات والغرائز ، يؤكد أصل هذه « الخيرية » ، لاعتبار القرآن الكريم أن تلك « المآثم » تشكل عدواناً على الفطرة ، وظلماً لها ، بحرمانها من حقها في بلوغ مستوى المجد والسمو والرفعة ، وليست أمراً نابغاً من ذاتها ، ولا تعبيراً ذاتياً عن مقتضياتها : « واتلّ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا ، لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الأرض ، واتبع هواه » • والاخلاد الى الأرض ، ايثارة للتدني والهبوط ، صدى لاطراح القيم ، أو عماية عنها ، أو لفقدان الانسان وعيه لذاته •

٧ - المعاني المختلفة لكلمة « النفس » في استعمال القرآن الكريم ، والتي ينبغي - على ضوءها - أن يُحدد ما يُسبغ عليها من الصفات ، من كونها فطرية ، أو ما دون ذلك ، نتيجة لعوامل مؤثرة خارجية ، أو لطغيان الهوى ، أو لسوء تصرف الانسان في ملكاته ، مما يشكل عدواناً على مقومات فطرته .

٨ - وصف الانسان بكونه « ظلوماً جهولاً » بصيغتي المبالغة - في مورد حمله لأمانة التكليف - في قوله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » (٤) يُقصد بهذا الوصف - في الحقيقة - الاخبار أو التصوير لما سيقع فعلاً من معظم البشر عند وجوب أدائها ، وانفاذ تكاليفها الشاقة ، من النكوص عن الامتثال ، أو من التهاون في أمر أدائها ، أو من الانحراف الارادي عمداً عن جادة الحق التي رسمتها رسالة التكليف ، تعنيفاً لهم ، بأسباب وصفي الظلم والجهل عليهم ، حتى بلغا بهم شأواً بعيداً ، وازدراءً ، من شأنه أن يوقظ وعيهم لذواتهم ، وهو ضرب من المعالجة النفسية ، لردهم الى أصل فطرتهم ، مما لا علاقة لهذا - كما ترى - ببيان طبيعة الفطرة ، وجوهرها أصلاً ، اذ ليست الآية الكريمة مسوقة لهذا الغرض ، على ما تبين لنا من مراد الشارع ومقصده ، من سياق الآية الكريمة في موردها الذي بيننا ، والدليل على هذا الانحراف الأغلب ، قوله تعالى : « أن تنطع أكثر من في الأرض ، يضلوك عن سبيل الله » .

٩ - أسلوب من المعالجة النفسية الفعالة من خلال اثارة العاطفة الدينية ، بما تخلق من حالة تأثيرية غالبة في مجال النفس الانسانية ، من شأنها أن تحمل على التأسّي والاعتداء بما ضرب القرآن الكريم للناس مثلاً فريداً خالداً تحققت فيه الانسانية المثلى اعتقاداً وسلوكاً ومواقف حاسمة في أشد الظروف حرجاً .

١٠ - الانسان « جهول » أيضاً ، بالغ الشأوفي الجهل ، حين لا يدرك ذاته ، وأبعاد رسالته في هذا الوجود ، وقيمة ما حُمِّل من أمانة التكليف التي منها تستمد قيمة انسانيته .

١١ - ان من يختص بأن يوصف بالجهل والظلم من دون سائر الكائنات ، عَسَى أن يوصف بنقيضيهما من العلم والعدل ، وهما من أصل دعائم الحضارة الانسانية .



أساليب القرآن الكريم في معالجة النفس لله نسيته

أولا - المقدمة :

ليست « مفاهيم » القرآن الكريم مجرد معان ذهنية تجريدية ، هي متاع للعقل ، أو بيّنات للمنطق ، أو مشار للوجدان ، أو غذاء وشفاء للنفس ، وحسب - بما تمتاز به من موضوعية المعنى ، ومثالية القيم ، وخلقيّة المبنى ، وشمولية التوجيه والهيمنة ، وانسانية المدى ، وعالمية الأثر ، وفطرية الما صدق - وانما هي - الى كل أولئك - منطلقات أساسية لكافة وجوه النشاط الانساني واقعاً وعملاً ، بما تملك من القدرة العجيبة على المزاوجة الواقعية بين جوهر الانسان فطرةً - قوى وملكات ، وغرائز ونوازع ، وميولا - وبين مقومات الوحي الالهي رسالةً - مبادئ وأصولاً عامة منطوقة ، أو معنوية مستنبطة - من شأنها أن يتم بها تحقيق النموذج الأمثل « للشخصية الانسانية » وقد تحقق هذا فعلاً ، فأخرجت لنا مثلاً أعلى فريداً خالداً - في حياة البشرية - للأسوة والاقْتداء - قولاً وسلوكاً ، ومواقف ، وأثراً باقياً على الدهر لا يَمَحِي ولا يتلاشى - مما يقيم البرهان الساطع على أن هذا الكيان البشري والنبوي معاً ، هو ثمرة هذا « المزاج المؤتلف من حقائق الوحي ، وخصائص ومقومات فطرة التكوين ، لقوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ^(٥) » ولولا امكانية صياغة هذه الشخصية الانسانية المعنوية على عين القيم العليا التي جاءت بها رسالة الاسلام ، لما كان كان للأمر بالتأسي والاقْتداء في قوله عز وجل : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ^(٦) » وجه معقول ، ولعل هذا هو السرّ في قَصْرِ اصطفاء الله تعالى الأنبياء والرسل على « البشر » ليضرب المثل الحي في امكانية هذا الامتزاج الواقعي ، المؤتلف ، على

نحو يُخرج لنا « النماذج الانسانية الفريدة » اخراجاً يؤهلها بحق ، للريادة والقيادة لسائر الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله^(٧) » بوصف « الخيرية » التي يندرج في معناها سائر القيم .

أ - امكانية الامتزاج المؤتلف بين المثل العليا رسالة ، وبين مقومات الكيان البشري فطرة ، هي مناط تحقيق «الخيرية» المستوجبة للريادة والقيادة للأمم بصريح النص القرآني ، مما يستلزم وجوب التآسي والاقتداء ، فضلاً عن أنها قوام الحجة البالغة على الخلق، لوحدة المقومات ، ومن هنا كانت «وحدة المسؤولية» بين الرسل والمرسل اليهم .

هذا شيء ، وشيء آخر ، هو أن هذا «الامتزاج المؤتلف» بين القيم العليا ومقومات الفطرة - على ما بيّنا - متى أضحي ممكناً ، بحيث يُخرج لنا الأسوة الانسانية الخالدة ، فعلاً ، فإن الله تعالى قد اتخذ من ذلك حجة بالغة على البشر ، لوحدة المقومات والخصائص ، والقوى النفسية والملكات ، والغرائز ، أو الاشتراك في أصل الطاقات ، والارادة الحرة ، فكانت قد رأ مشتركاً بين الرسل والمرسل اليهم ، والأمم الخالفة من بعدهم ، ومن هنا كانت وحدة المسؤولية : « فلنساءن^٨ الذين أرسل اليهم ، ولنساءن^٩ المرسلين » (٨) .

هذا ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا المعنى ، تأكيداً لبشرية الرسل ، واقامة للحجة على الناس ، بوحدة فطرة التكوين ، بقوله عز وجل : « وما جعلناهم جسداً ، لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » . فالطعام والفناء ، من لوازم البشرية بلا مرأى ، فعبر باللازم عن المعنى الملزوم ، وهو وصف البشرية « فلم يعد ثمة للناس على الله تعالى من حجة ، بمقولة أن الرسل والأنبياء من فطرة أخرى يتأتى معها ائتلاف المزاوجة من دونهم ، فضلاً عن أن « وحدة الفطرة » تتيح امكانية التفاهم ، والتبليغ ، والتبيين ، والتآسي ، وهذا هو مفاد قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » (٩) أي من جوهر فطرتكم البشرية .

ب - الاستعداد الفطري ، هو منشأ امكانية امتزاج معاني الوحي بمقومات الكيان البشري ، قوى وملكات ، بحيث تغدو تلك المعاني سجايا روحية غير قائمة على اعتبارات مادية ، بدليل أنها أخرجت لنا شخصيات عالمية غيرت مجرى التاريخ .

على أن تدخل العناية الربانية في صياغة الشخصية النبوية ، بعد اصطفاؤها مهبطاً للوحي والرسالة : لقوله عز شأنه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (١٠) وقوله جل وعلا : « وربك يخلق ما يشاء ، ويختار » (١١) أقول : ان تولي العناية الربانية هذه الشخصية المرسل ، بالتنشئة (١٢) والتوجيه (١٣) والتأديب (١٤) ، لا يعكّر على هذا الأصل الذي أصلنا ، من الاستعداد الفطري لامتزاج معاني الوحي بالكيان البشري ، قوى وملكات ، وهو ما أدركه بعض أجلاء الصحابة (من مثل عبدالله بن عمر) حيث عبّر عن ذلك بقوله - فيما نقله عنه الامام الشاطبي - : « ان المجتهد الحق ، قد أدرجت النبوة بين جنبيه ، وان لم يكن نبياً » - الموافقات - ج ٣ - ص ٣٧١ - وذلك لاستقامته في كافة مواقفه الحيوية على سَمْت ما تقضي به الهداية الالهية ، فضلاً عما أُوتي من نفاذ البصيرة ، وأصالة التعقل ، وعمق الادراك ، وسداد المنطق ، وحيوية الضمير - بما تعهدها جميعاً بالتنمية والارواء - واتساق آرائه الاجتهادية ، وقوة مدركها ، اذ غدا ما استسرّ في كيان تلك « الشخصية الاجتهادية » من معاني الوحي وحقائقه - كتاباً وسنة - منطلقاً أساسياً لتلك « المواقف الحيوية الحاسمة » التي اتخذها لا في حياته الخاصة والعامة ، وما يتعلق بمصير أمته وحسب ، بل وفي تاريخ البشرية بأسرها ، أيضاً ، حتى غيّر مجراه ، وهذا - بلا مرأى - ايدان بواقعية هذه المثل ، وما تشتمل عليه من القيم الموضوعية المطلقة التي تعلو على الزمان ، والمكان ، والأجناس ، والألوان ، واللغات ، لتحلّق في الأفق الانساني الرحب ، ولتطابق - بحكم موضوعيتها واطلاقها ، وعمومها - وحدة جوهر الفطرة البشرية ، في مقتضياتها ، وهذا منشأ عالميتها ، وانسانيتها ، وكمالها ، وأنها خالدة بخلود الفطرة نفسها ، لصريح قوله عز وجل : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » (١٥) . ولقوله عز وجل : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١٦) .

ج - قوة أثر الامتزاج المؤتلف بين حقائق الاسلام ، ومقومات فطرة التكوين ، تبدو في خلق ، « الملكة » المدركة التي تقدر صاحبها على التمييز بين الحق والباطل ، وتطابق في مدرقاتها وتمييزها الفرقان المنزّل ، في توجيهاته وأحكامه ، وتستوي ظهراً للعقل الفطري الأول ، مما يؤكد قوة أثر القرآن الكريم في تنمية الملكات والقوى النفسية .

على أن قوة أثر هذا الامتزاج المؤتلف ، في فطرة التكوين ، تبدو في خلق المَلَكَة المدركة المميزة ، وتأصيلها في النفس الانسانية ، ثمرة للاخلاص في التفهم ، وعمق التمثيل لمضمون تلك « القيم » ومعاناة التأمل والتفكير ، لاستشراف « الغايات الكبرى » التي تستهدفها توجيهات هذا القرآن العظيم ، ليكون تنفيذها الطوعي على أدق وجه وأكمله ، وصدى لنجاعة أساليبه في معالجة النفس الانسانية .

هذا ، وانما قلت انها « مَلَكَة مُدركة » مكسوبة ، لأنها وليدة الاستقامة في التفهم والادراك الدقيق ، والتنفيذ العملي المخلص الأمين ، والاعتقاد بحقية كل أولئك ، وهو ما يطلق عليه « التقوى » تلك « الملكة » التي غدت قوة هي ثمرة ذلك الامتزاج ، والعمل ، مضافة الى قوى النفس الانسانية ، تتكوّن وتتخلّق وتستوي على سوقها ، ظهيراً للملكات الفطرية ، وفي مقدمتها « العقل » أو هي – كما يقول بعض العلماء^(١٧) – عقل ثان يشدّ من أزر العقل الفطري الأول ، ويسدد خطاه ، ويَبَسِّطُ سُودَدَه على منازع الأهواء ، باعتباره قوة روحية مدركة ، – كما أسلفنا – فتؤثر بالتالي تأثيراً فعالاً في توجيه الارادة ، لتنتقل في عزم وتصميم الى تنفيذ أحكام العقل الأول الذي استرشد بنور الوحي وسار في هديه ، بما تتغلب تلك القوة الروحية المدركة المميزة على منازع الهوى في النفس الانسانية ، أو تُضعِفُ – على الأقل – من أثرها في احباط أحكام العقل الانساني ، وهو ما أشار اليه الامام الشاطبي في قوله : « ما جاءت الشريعة الا لتخرج الناس عن دواعي أهوائهم » وهذا ضرب من معالجة قوى النفس الانسانية ، تسديداً ، وترشيدها بلا ريب .

على أن هذا التحليل الأصولي لهذا العامل القوي المؤثر في معالجة منازع النفس الانسانية ، ليس أمراً مبتدعاً منا ، لنسبه بالآخرة الى آثار التوجيهات القرآنية في النفس الانسانية ، صدى للتفهم العميق الدقيق لمفاهيم القرآن الكريم ، والتنفيذ الطوعي الأمين ، بل هو ما جاء تقريره بصريح منطوق الآية الكريمة : « إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً » أي « مَلَكَةً نفسية » مقتدرة ، نكسبكم اياها ، ونؤصّلها في نفوسكم لتقواكم ، واخلاصكم في صدق الاعتقاد ، وعمق التفهم والتدبر لمقررات الوحي الالهي ، ومعاناة الاجتهاد والبحث في

سبيل استجلاء حقائقها واستشراف غاياتها : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها » تبيننا لمقصد الله فيها ، وليتم التفاعل معها ، أو التمثل العميق لتلك الحقائق التي أطلق عليها القرآن الكريم ، كلمة « البصائر » في قوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها » (١٨) . والابصار هنا كناية عن التفهم والادراك والتمييز ، ثم الانطلاق منها سعيًا جاداً ومخلصاً في تحقيقها في الواقع الوجودي ، أو بعبارة أخرى ، ان تلك « الملكة النفسية » المقتدرة - بما هي قوة روحية مدركة مميزة - قد تكونت ثمرة للتقوى ، في التفهم والامتثال الطوعي الواعي المتدبر لحقائق البصائر ، انطلاقاً من « الاعتقاد الحق » في مصدرها وهو الله عز وجل ، جمعاً بين « التفهم العقلي العميق ، والسلوك الانساني الرشيد » ولا تعني « التقوى » في المفهوم القرآني الا هذا .

على أن طبيعة هذه « الملكة النفسية » التي هي اكسير معالجة النفس الانسانية - على ما أشار اليها القرآن الكريم ، من كونها فرقانا - هي قوة روحية تُقَدَّر صاحبها - كما قلنا - على التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحكمة والهوى ، فيصلاً حاسماً يتفق مع « الفرقان » الموحى به ، في قوله تعالى : « تبارك الذي نَزَلَ الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً » ، وقوله عز وجل : « هدى للناس ، وبينات من الهدى ، والفرقان » ، وهذان الفرقانان ، أعني الفرقان الموحى به ، والفرقان النفسي ، من المحال أن يتناقضا ، بل هما متطابقان - جوهرًا وغاية - لوحدة المصدر ، ووحدة التعاليم والقيم ، مفهومًا وأثرًا ، أو معنى وما صدقا من جهة ، ووحدة مقومات الفطرة المتفاعلة معها من جهة أخرى ، وفي هذا ما فيه ، من سداد التوجيه الناشئ عن صياغة النفس الانسانية ، على عين المثل العليا - نظراً وعملاً !!

أما من حيث النظر ، فيتبدى ذلك في التفهم العميق المُدْرِك لحقائق الوحي الالهي ، باخلاص وموضوعية وتجرد ، بحيث تتمثلها النفس الانسانية ، وتتفاعل معها ، لتصبح روحاً يسرى في كيانها ، كما بيننا ، وبدون هذا التفهم العميق يكون الأداء ألياً أصم ، لا روح فيه ، وما لا روح فيه لا أثر له ولا غاية ، ولا يقوى بالتالي على أن يكون تعبيراً عن القيم والمثل العليا .

وأما من حيث العمل ، فلأنها منطلقات ، بل هي مُوجبات المواقف الحيوية الحاسمة تُجاء وقائع الحياة ، بحيث تجسدها وضعاً قائماً فيها ، بما اشتملت عليه من معنى ، واستهدفت من غاية .

هذا ، وإذا كانت «التقوى» هي ملاك تلك «المواقف» وروح العمل الصالح المقرون بالايمان الصادق ، كان الاستواء في أصلها ، بين المجتهد وغيره ، أمراً محتوماً ، لوحدة المعنى ، مع ما تقضي به من التفاوت ، سعة المدارك لدى كل منهما .

على أن هذا المعنى يتجلى أكثر بياناً وعمقاً ، إذا ما حددنا تحديداً علمياً ، مفهوم «الفطرة البشرية» وطبيعتها في ضوء تعاليم القرآن العظيم ، وهو ما نرجيء تفصيل القول فيه الى مقامه في هذا البحث .

هذا ، وقد شهد القرآن الكريم للرسول ﷺ بهذا المنهج الالهي العملي الذي التزمه ، وحرص على ترسّم معالمه ، في كافة مواقفه الحيوية ، ووجوه سعيه ، ان في السلم ، أو الحرب ، في مثل قوله سبحانه ، « وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١٩) وهو ما انعكس على أصحابه - رضوان الله عليهم - فكانوا نماذج بشرية واقعية تُجسّد المثل العليا ، مما يؤكد هذا الأصل الذي يقضي بإمكانية تحقق الامتزاج التام بين حقائق الوحي ، رسالة ، ومقومات التكوين البشري ، فطرة ، على مدى الأزمان المتطاولة ، والا فَمَا معنى قوله ﷺ : « أصحابي كالنجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » (٢٠) . وقوله ﷺ : « عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » (٢١) ، ومفهوم « السنة » هنا ، هو الطريقة العامة في الحياة ، أو المنهج العام الذي بيّن معالمه هذا التشريع العظيم ، كتاباً وسُنّة ، على ما يحدده الامام الشاطبي في موافقاته (٢٢) .

هذا ، وعلى الرغم من أن الحديث الأول الذي رويانا ، قد تكلّم فيه ، غير أنه لا نزاع أن معناه صحيح ، اذ قد ثبت في الواقع التاريخي ، أن عصر الخلفاء الراشدين بوجه عام ، كان هو العصر الأمثل ، بما تجلّى فيه ، من صدق الالتزام بمبادئ الاسلام ، وتطبيقها على الوجه الأكمل ، فضلاً عن أن مقام الصّحبة أمر عظيم ، تكمل به الفضيلة ، ويعظم الشأن ، وتتحقق « الخيرية » التي تستوجب التأسّي والاقتداء ، بل الريادة والقيادة ، اذ قد تحقق فعلا في السلف الصالح ، معنى

قوله ﷺ : « انما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » سواء منهم من كان من رجال الحُكم والسياسة ، أم كان من قادة الحروب ، أم من أئمة العلم والاجتهاد ! على أن مما يوضح هذا النظر ، بل ويؤكد ، أن مبدأً من مبادئ الاسلام ، أو مفهوماً عاماً من مفاهيمه الكبرى ، أو مقصداً من مقاصده الأساسية والفرعية ، لم يكن يوماً عَصِيّاً على التطبيق ، أو يناقض الفطرة الانسانية في أيٍّ من مقتضياتها ، وحاجاتها ، ومطالبها الحيوية ، مما يطلق عليه الأصوليون والفقهاء ، لفظ « المصالح » منذ عهد الرسالة حتى يومنا هذا ، بل وحتى تُبدّل الأرض غير الأرض ، والسموات ، لما أسلفنا ، من امكانية تحقق الامتزاج واقعاً وعملاً ، بين حقائقه وقيمه ، وبين مقومات الفطرة .

هذا ، ومن الثابت ، أن كل ما يناقض الفطرة الانسانية ، ترفضه وتأباه ولن يكتب له ديمومة ولا بقاء .

د - كون الاسلام خاتم الرسالات ، يستلزم هذا التطابق بين الفطرة وهذا الدين ، تفسيراً منطقياً معقولاً لانقطاع الوحي .

وبيان ذلك : أن كون الاسلام قد جاء خاتماً للرسالات ، وأنه « كلمة الوحي النهائية » الى البشر كافة ، يستلزم هذا التطابق بين مقومات الفطرة وبين حقائق هذا الدين ، تفسيراً منطقياً معقولاً ، لانقطاع الوحي ، ولسبب بسيط هو : ان ما يلبي حاجات الفطرة ومطالبها ، الحيوية - اذ قد شُرع الشرع على قدرها - حريٌّ أن يتسم بالكمال ، وان يتميز بالخلود ، وهذا هو المشار اليه في قوله عز شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٢٣) . وليس بعد الاكمال والاتمام شيء يُبتغى ، هذا من حيث النظر المنطقي .

أما من حيث الواقع التاريخي - تدليلاً لمصادقية هذا النظر - فتجد ذلك جلياً في آثار ذلك الواقع بالنسبة الى كافة الشرائع العملية التي كانت معاصرة لنزول القرآن الكريم ، اذ تراها اليوم قد بادت جميعاً ، حتى في البيئات الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة فيها ، بل قد اطرحتها الأمم التي كانت تتشبع بشرعها وقانونها المدني ، اذ لم تعد تفي بحاجاتها ، أو تسير تطور الحياة بها ،

حتى أضحت تلك القوانين والشرائع المدنية القديمة ، مجرد مادة للدراسة التاريخية ، بخلاف الاسلام ، فقد بقي عبر القرون حياً في نفوس معتنقيه في جميع بقاع الأرض ، حياً في عقائده ، وعباداته ، ومعاملاته بكافة فروعها ، ومُطبّقاً في الأقطار الاسلامية ، وان تفاوتت النسب في هذا التطبيق ، تفاوتاً مرده عوامل خارجية ، وليس ذاتية هذا التشريع ، أو طبيعته من حيث الصلاحية ، ومن تلك العوامل ، الجهل بحقائقه ، والسلطة الأجنبية في عهود الاستعمار وما تزامن معه من تخلف شديد قد حاق بالمسلمين في شتى مناحي الحياة ، نتيجة لذلك ، لأن الاستعمار لا يتمثل مفاهيمهم ولا يشاركهم خصائصهم ، ومن هنا كان أكبر عامل في تخلفهم .

هـ - سر استمرارية صلاحية الاسلام « ديناً وتشريعاً لكل زمان ومكان » وديمومة تأثير توجيهاته ، ونجاعة أساليبه في معالجة النفس الانسانية ، سر ذلك ، أن أصوله العامة وفروعها المقطوع بها ، تتعلق بالمصالح الانسانية الثابتة التي تعتبر من مطالب الفطرة وحاجاتها الدائمة .

وتفصيل ذلك ، أن سر استمرارية هذه الصلاحية لكل زمان ومكان ، يكمن في أمرين أساسيين :

أولهما : أن أصوله العامة وفروعه المنصوص عليها بصورة قاطعة - كيلا تكون مجالاً للاجتهاد بالرأي ، والاختلاف في تحديد مدلولاتها ، من مثل تفاصيل أحكام الأسرة التي هي أساس بنيان المجتمع ، ونظام الارث الذي يتعلق بتوزيع الثروة والممتلكات ، بما له من مساس بالنظام العام في الدولة ، والمحرمات التي تصون الحرمات من الأعراض ، والأموال والأنفس وغيرها كثير - أقول أن تلك الأصول العامة الثابتة ، والفروع المنصوص عليها على نحو قاطع مما لا يحتمل تأويلاً ، ولا تبديلاً ، تتعلق بها في الواقع - مصالح انسانية ثابتة على الدهر ، قد حذر القرآن الكريم من تبديلها : « لا تبديل لكلمات الله » (٢٤) وأطلق عليها كلمة : « الحدود » : « تلك حدود الله ، فلا تعتدوها » (٢٥) لما ينجم عن الافتئات عليها ، من قلب الأوضاع ، واختلال الموازين في المجتمع ، وفوات مصالحه الجوهرية ، بحيث يفضي - آخر الأمر - الى التهافت والانهيال ، بشيوع الفوضى ، وتسافك الدماء ، وهذا مآل لا يجوز المصير اليه بحال ، شرعاً وعقلاً ، وذلك من مثل : أصول العدل ، والحق ، والمساواة ، والحرية ، والعصمة ، والملكية الفردية المقيّدة ، والتكافل الانساني ، والتواصل الحضاري ، مما يعتبر تعاوناً

على البر في أوسع مدى، وأمّهات الفضائل، وأصول الأخلاق من « الاحسان » بازاء العدل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (٢٦) . و « الايثار » : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (٢٧) و « العفة » « والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم » (٢٨) و « الرحمة » لقوله عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء » « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » والصدق والصبر والاخلاص في تنفيذ المبدأ ، ولا سيما اذا كان ذلك متعلقاً بمصير الأمة : « والصابرين في البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢٩) والانفاق في كافة وجوه البر ، لاقامة المرافق العامة في الدولة بوجه خاص ، والا كان الشح الذي يؤول الى الالقاء باليد في التهلكة ، وسوء المصير ، لقوله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ، ولا تُلْقُوا بأيديكم الى التهلكة » وغض البصر ، والاحتشام ، والجدية في موقف الرجل تجاه المرأة الأجنبية ، وتحريم قذفها بالفاحشة ، رعاية لحقها في عزة أنوثتها ، وصوناً لها من الابتذال ، وحماية للشرف والعرض ، وهو نصيب من المصلحة العائدة على المرأة نفسها بما يربو على نصيب الرجل من التهذيب والاعفاف ، واقامة العلاقة بين الزوجين على أساس المودة ، والرحمة ، بصريح النص : « وجعل بينكم مودة ورحمة » ، فضلاً عن الاخلاص ، والمروءة ، والتذم (رعاية الذمة في المعاملة) مما يبعث على الترفع عن المعاملة الدقيقة في الاقتضاء ، ويحمل على الاحسان والفضل في القضاء ، هذا فضلاً عن التزامات الاخاء الانساني ، والتسامح الديني ، بل البر والأقساط الى المخالف في الدين ، ما لم يكن محارباً ، أو ظهيراً للمحارب ، وسائر « القيم » التي هي قوام الحياة الانسانية ، ولهذا جعل الاسلام كل أولئك مرتبطين بالعقيدة نفسها ، ولم يعتبرها مجرد توجيهات أو مندوبات تناط بعلو الهمة ، وفضل المروءة ، مما يُترك لمحض الخيار الانساني ، بل جعلها - كما أشرنا - مرتبطة بالعقيدة نفسها ، لتدخل في مضمون «التعبد» بمعناه العام في الاسلام، اضافةً لمعنى التقديس الذي لا ينبغي المساس به ، أو اهمال شأنه ، أي متصلة بالله تعالى مباشرة ، من خلال وحيه المنزل ، ضماناً لثباتها ، وصوناً لحقائقها أن يعترىها تغيير أو تزييف ، بل أطلق عليها القرآن الكريم كلمة « الحق » في مواضع شتى ، من مثل قوله عز وجل « إنك على الحق المبين » (٣٠) وقوله جل ثناؤه : « فماذا بعد الحق الا الضلال » (٣١)

اذ لا واسطة - وقوله سبحانه : « بل نَقْدِفُ بالحق على الباطل ، فيدمغه ،
فاذا هو زاهق » (٢٢) وقوله عز وجل : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » (٢٣)
وغير ذلك كثير .

**ارتباط الأصول العامة الثابتة في حقائقها ومضامينها بالحاسة الفطرية في الانسان،
ضماناً لثباتها ، وصونها لها من التحريف والتزييف ، اذ لا تبديل للأولى ، فكذلك للأخرى .**
هذا ، وتفسير « الحق » عند الأصوليين والفقهاء ، هو الأمر الثابت من كل
وجه ، ولذا أطلق الله تعالى على ذاته العلية ، اسم « الحق » في قوله عز وجل :
« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » كما أطلق عليها « البصائر » و « البيّنات » .
على أن تلك الأصول العامة الثابتة في حقائقها ومضامينها ، مما يطلق عليه
« الحق » و « البصائر » : « قد جاءكم بصائر من ربكم » « والبيّنات » فضلا
عن ارتباطها بالله تعالى مباشرة ، من خلال وحيه المنزل ، كما أشرنا ، تراها
مرتبطة أيضاً بالحاسة الفطرية في الانسان ، لقوله تعالى : « بل الانسان على
نفسه بصيرة » (٢٤) مما يكفل ثباتها ، لثبوت مُتعلّقها ، كما يضمن « استمرارية »
تحقيقها في المجتمع البشري في كل عصر وبيئة ، لسبب بسيط ، هو أن ما يتعلق
بالفطرة لا يتبدل ، ومن هنا ، تدرك السرفي ربط القرآن الكريم بين الدين
والفطرة - على ما بيّنا - أي بين أصوله العامة الثابتة التي تعتبر من
الأساسيات وقواطع الدين ، وبين الفطرة الانسانية التي أُعدت اعداداً خاصاً ، وفي
أحسن تقويم ، لهذا التشريع الذي أنزل على قدرها ، فكما أنه ليس في الوسع
تبديل الخلق والفطرة ، « لا تبديل لخلق الله » (٢٥) بل لا يُعقل ذلك ، لأنها في أحسن
تقويم ، بل هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، وانها « صبغة الله ، ومن
أحسن من الله صبغة » (٢٦) كذلك لا يجوز تبديل أساسيات الدين ، عن طريق
الاجتهاد بالرأي فيها ، لأن ما شرعت له قاطع وثابت ، ولأن الاسلام هو « الدين القيم »
لقوله تعالى : « ذلك الدين القيم » والقيّم لا يجوز - في منطق العقل - تبديل غيره
به ، أو التجاوز على حدوده ، فضلاً عن أن ما يناقض الفطرة من التشريعات ،
والتوجيهات ، لا بد أن ترفضه الفطرة نفسها ، وتأباه ، فلن يكتب له ديمومة
ولا بقاء ، لمنافاته للطبيعة البشرية نفسها - كما قدمنا - ولأن الشيء
لا يثبت مع ما ينافيه ، والتشريع الاسلامي ما أنزل الا على قدرها ، لمعالجتها ،
وتوجيهها وتدبير الأمر فيها ، حين تغدو مدخولة بعوامل خارجية تُفسد عليها
أمرها ، على ما سيأتي القول فيه مفصلاً في مقامه .

هذا في « الأساسيات » بخلاف ما دون ذلك من « المحتملات » أو « الظنيات » فهي مجال للاجتهاد بالرأي ، كما في أحكام المعاملات المبنية على المصالح الجزئية المتغيرة .

هذا ، ولا بد من التنويه بأنه على أساس « الحاسة الفطرية » في الانسان بوجه خاص ، كانت معالجة القرآن الكريم لمنازع النفس الانسانية ، وتوجيه قواها ، وغرائزها ، معالجة تستهدف تنميتها ، واستثمار طاقات تلك القوى النفسية لصالح الانسان نفسه ، وصالح الانسانية جمعاء ، تأدية لوظائفها التي خلقت من أجلها ، على ما سيأتي تفصيل القول فيه .

و - ما قيل آنفاً في « أساسيات » القرآن الكريم ، وأصوله العامة الثابتة ، وقواطع النصوص فيه ، من الناحية الايجابية - هو مقول كذلك في « نقائص » تلك الأصول من الجرائم ، والمعاصي والمنكرات ، وكبائر الاثم ، من الناحية السلبية ، وبيان ذلك :

من الثابت أن « المحرمات » والجرائم ، وكبائر الاثم ، وسائر المعاصي ، لا يتعلق بها مصلحة انسانية ينشدها عقل رشيد ، أو طبع سليم ، أو ضمير انساني حي ، وانما هي مبتغى للشهوات حين تطفئ منازعها على سؤدد العقيدة ، وحكمة العقل ، ويقظة الضمير ، وهذه هي الغفلة السادرة ، والغرور الذي يستبد بمجامع النفس ، وحينئذ تصبح الدنيا على هذا النظر ، « متاع الغرور » - على حد التعبير القرآني - في مثل قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » - في حين ان الحياة الدنيا ، والكون ، وموجوداته ، وما في السموات والأرض ، آيات للموقنين ، وان هذه الآيات الدالة على عظمة الخالق ، وبالغ حكمته ، ومُحكّم تدبيره ، مادة للنظر العلمي الموصل الى الحقائق العقلية ، وهذه الحقائق العقلية بدورها سبيل مفض الى الحقائق الروحية ، على ما سيأتي بيانه ، وصلاً للانسان بالكون ، وحثاً له على التصرف فيه ، تعميراً وتحضيراً ، بل وعلى الاقبال على الحياة ، انتفاعاً ، بمقتضى قوله عز وجل : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٢٧) أي طلب اليكم اعمارها ، وتحضيرها ، كما أسبغ على الأناسي نِعْمَه ' ظاهرة وباطنة ، للتصرف والانتفاع ، بدليل امتنانه تعالى على الخلق بهذه النعم ، لقوله عز وجل : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » (٢٨) ولا امتنان في غير اسباغ النعم ، يؤكد هذا أيضاً قوله عز

وجل : « وانْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » وقوله سبحانه « لئن شكرتم لأزيدنكم » (٣٩) مما ينبىء أن مراد الشارع هو التمتع بالطيبات دون سرف أو بطر أو مجاوزة للحدود ، أو مجانفة لاثم ، لِمَا أن الآثام والفواحش ليست في صالح البشرية على الإطلاق ، وان الجنوح اليها ، ومقارفتها ، انما هو بدافع الشهوات العارمة ، مصداقاً لقوله سبحانه : « ويريد الذين يتبعون الشهوات ، أنْ تَمِيلُوا ميلاً عظيماً » (٤٠) أي عن سنن الله تعالى في الوجود البشري .

ز - الاسلام يحفل بالدينا ، وبما في الكون من ماديات ، بل ويحث على الاقبال عليها ، ولا تكون متاعاً للغرور ، الا حين يرفع متاعها فوق القيم ، وتستبد بالانسان أهواؤه ، فتفقده وعيه لذاته الانسانية ، ولأبعاد رسالته في هذا الوجود .

وعلى هذا ، فان الاسلام يحفل بالدينا ، وبما في الكون من ماديات ، ولا تكون متاعاً للغرور الا على الوجه الذي بيّننا ، ذلك لأن حقائق المادة - كما قدمنا - هي أساس أو منطلق الحقائق العقلية المفضية بدورها الى الحقائق الروحية ، على ما سيأتي تفصيل القول فيه في بحث الصلة التي عقدها الاسلام بين الانسان والكون .

هذا ، وانما أشرنا الى أن ما قيل في « أساسيات » القرآن الكريم ، وأصوله العامة الثابتة ، هو مقول أيضاً ، في « نقائص » تلك الأصول من الجرائم والمعاصي ، والمنكرات وكبائر الاثم ، من قبل أنه لا يشتبه على الأجيال البشرية المتعاقبة عبر القرون ، أن تلك « النقائص » قبائح « بوحى الحاسة الفطرية أيضاً ، يرشدك الى هذا ، قوله ﷺ : « الاثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » فليس من المتصور اذن ، أن يستسيغ العقل ، أو يستمرىء الوجدان شيئاً من المحرمات ، أو مقارفة الفواحش والبغي ، أو أن تستجيب لذلك الحاسة الفطرية ، لأن الأصل فيها « الخيرية » وهذه مضار ومفاسد بينة من شأنها أن تفتك بالنفس والجسم معاً ، وتشل طاقاتها ، أو تحمل النفس على أن تغتال حقوق الغير وتهضمها ، أو تصرف عن اكتساب المال والمنافع واستثمارها من خلال الطرق المشروعة ، أو تبعث على الاجترار على الحرمات ، فتسفك الدماء ، وتدمر العمران ، وتهتك الأعراض ، وتستبيح ثروات الشعوب المستضعفة والمقهورة في الأرض ، وتقتلعها من ديارها ، لتستوطنها ، وتحط من الكرامة الآدمية التي ميز الله بها بني آدم ، ثم تأتي تلك المفاصد ، وكبائر الاثم ، والطغيان آخر الأمر ، على المجتمع البشري كله ، فتدمره ، تدميرا - على حد تعبير القرآن

الكريم - لفقدانه ما به قوام انسانيته من القيم والمثل العليا الخالدة ، ولا قيام لشيءٍ ما ، دون عناصره التكوينية ، ولذا ترى القرآن الكريم طافحاً بالآيات التي تُنذر الناس من مجرد التفكير في مقارفتها أو عقد العزم على ارتكابها ، فضلاً عن التردّي في حمائها ، ولا تني هذه الآيات الكريمة تلفت الانسان الى أن ينتقل بعقله ، ونفسه ، ووجدانه ، ومدارك حسه الى وقائع التاريخ - حتى الموقعة منها في القدم - مما كان أثراً حتمياً لفاعلية الانسان على مسرح هذا الوجود ، ليلتمس منها « العبرة » وليدة للبحث والنظر العلمي ، وليستخلص بعُد ، ما يسلك هذه الوقائع الجزئية ، وآثارها ، من « القانون العام » أو السُنن الاجتماعية الكلية ، النافذ أثره الحتمي في الحياة والأحياء ، باعتباره سنة اجتماعية ، ثابتة ، ومطرودة ، ونافذة ، وحتمية النتائج ، وهي من وضع الله تكويناً ، ايقاظاً لوعي الانسان لكونه ذاته ، وحقيقة مركزه ، وأبعاد رسالته الحضارية في هذا الوجود ، في مثل قوله تعالى : « سنة الله في الذين خلّوا من قبل » ، وكان أمرُ الله قَدَرًا مَقْدُورًا » (٤١) وقوله عز وجل : « فهل ينظرون الا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً » (٤٢) وقوله عز شأنه : « يريد الله ليُبين لكم ، ويهديكم سُنن الذين من قبلكم » (٤٣) وتبصيراً للانسان بسُنن الله في هذا الوجود ، ونتائجها ، سواء منها ما تعلق بالنفس الانسانية ، أم بالمجتمع البشري ، أو بالكون ، أو بمسار التاريخ ، مما يستدعي دراسة علم الفلك وعلم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم التشريح ، أو علم وظائف الأعضاء ، استهداء بحقائقها في الكشف عن أسرار هذا الوجود ، وقوى النفس الانسانية ، والانتظام في سلك قضاياها ، وقوانينها ، وليدرك أن ليس شيء في الوجود الانساني والكوني وآفاقهما ، خلق عبثاً ، ولا لعباً ، ولا لهواً ، ولا صدفه ، بدليل تكليف الانسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، وفي الآفاق ، وفي الأنفس ، وفي كل ما خلق الله ، بل وتكليف العقل الانساني بالقيام بكافة وظائفه ، من التدبر ، والتذكر ، والتعقل ، والتفقه ، والاعتبار - استخلاصاً لما يكمن وراء الظواهر الوجودية من مغزى وعبرة - ومن التفكير والتأمل ، وهو جَوَولان العقل في الماديات ، والمعقولات ، استخلاصاً للحقائق ، وتبيناً لقانون السببية التي يربط الأسباب بمسبباتها ، وصولاً الى الحقيقة الكبرى التي يرتبط بها هذا الوجود وهو الله عز وجل ،

فضلا عما بثَّ في رُوع الانسان أنه لن يُترك سدى ، لا يُؤمر ولا يُنهي ، بوضع منهاج للحياة دقيق ومرسوم ، والأمرو زانُ النهي ، كلاهما واجب الامتثال ، والنهي مناط التحريم ، بل التحريم مقدم على الأمر في شرع الله من حيث وجوب الامتثال عند التعارض ، للقاعدة المستقرة التي مؤدّاها ، أن : « درء المفسد مقدم على جلب المصالح » بشرط أن تكون الأولى موازية للأخرى ، أو تزيد عنها .

هذا ، ولاهتمام الشارع بالمنهيات على نحو أكد من المأمورات «خاطب الرسل أنفسهم بالتزام الطيبات» اشارة الى وجوب الانتهاء عن الخبائث، وعن المحرمات - في الكسب والعمل - لأن الأمر بالشئ نهي عن ضده ، مثل قوله تعالى : « يا أيها الرسل ، كُلُوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، إني بما تعملون عليم » (٤٤) .

ح - منشأ خطورة التحريم في الاسلام ، هو مخاطبة الرسل به على الرغم من عصمتهم ، اشارة الى أنه لا يتسامح فيه مع أحد ، ولو كان رسولا مصطفى ، لاتصاله بعمران العالم ، واستقامة أمر المجتمع ، قوة ، ومنعة ، وتقديما ، وانسانية .

على أن مما يؤكد خطر هذا المعنى ، اقتران الطيبات بالعمل الصالح الذي يُقصد به عمران الدنيا ، ذلك لأن اكتساب وسائل العيش الطيب المعبّر عنه بالأكل ، فرع عن العمل الصالح ، بل هو سبيل ممهد اليه ، مما يدل بالمفهوم المخالف ، على أن العكوف على مقارفة الخبائث والمحرمات من شأنه أن يَصرف عن العمل الصالح المثمر البناء أبداً ، ومن هنا نشأت خطورة التحريم في الاسلام ، وخوطب به الرسل صراحة وايماءً ، وهو - في الواقع - خطاب للأمم التي أُرسلوا اليها ، لأن من المقرر أصولياً ، أن خطاب الرسول خطاب لأُمته ، ما لم يرد دليل الخصوصية ، توجيهاً عاماً للملكات والقوى النفسية ، وتنظيماً لفاعلية الانسان بوجه عام - افراداً وجماعات وشعوباً وأممًا وتنمية واستثماراً للطاقات في مسالك « المصالح الجدية الحقيقية المعقولة » التي تنهض بالعمل الصالح ، ضبطاً للموازن ، واجراءً لمقتضيات السنن في دقة واحكام ، وتشبيهاً لصرح الحياة الانسانية في أرفع مستوى ، ومن هنا تُدرك السر في تذييل الآية الكريمة : « إني بما تعملون عليم » بما يفيد « التهديد » الذي يُرشد خطورة هذا المعنى - من نوعية الكسب العمل - على النحو الذي بيّنا .

يوضح هذا ، ويؤكد ، أن اقتراف المحرم ، وملابسة المنكر ، بل الضلال في الفكر ، معظم مناشئها « الهوى » ولخطورة هذا المنحى ، ترى القرآن الكريم يعالجه بأسلوب يدل على « خطورته » فتراه يوجه النهي صريحاً الى الرسول ﷺ عن أن يتبع الهوى ، أو أهواء الضالين - واضلال النفس ظلم لها - تجد هذا بيّناً في مثل قوله تعالى : « ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا » (٤٥) وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذا لمن الظالمين » (٤٦) .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام ، هو : كيف يوجّه خطاب الهي الى الرسول ﷺ لينهاه عن اتباع أهواء الضالين ، على الرغم من أنه « معصوم » بل من المحال أن يتأتى منه ذلك ؟

ان السر في ذلك هو تضمين الخطاب معنى « التهديد » ، لخطورة الشأن المخاطب به ، وهو تهديد موجّه - في واقع الأمر - الى أمته ، ولا يتخذ القرآن الكريم هذا الأسلوب الا فيما يتعلق به شأن خطير يمس الصالح العام ، أو مصير الأمة ، أو كيانه المعنوي ، أو يُقَرُّ باطلا ، أو يقطع سبيل الحق ، ليوظ وعي الانسان بأخطار ذلك ، من قبل أنه اذا خوطب بالانتهاء عنها ، مَنْ لا يُعقل أن تصدر عنه ، فلأن يكون مخاطباً بهذا الانتهاء مَنْ يُتوقع منه ذلك من باب أولى ، توعية وتبصرة ، وهو أسلوب بالغ الأثر في معالجة النفس الانسانية ، وايقاظ وعيها . هذا فضلا عن أن هذا الأسلوب من التوجيه الالهي ، يوحى بأن هذا الأمر الخطير المنهي عنه ، لا يُتهاون في أمره مع أحد من البشر ، مطلقاً ، حتى ولو كان رسولا مصطفى !

ذلكم هو السر في هذا الأسلوب من الخطاب القرآني ، وهو معنى قول الأصوليين : « خطاب الرسول ، خطاب لأُمته ، ما لم يرد دليل على الخصوصية » وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد عبده : « أفرد بالخطاب - أي أفرد الرسول ﷺ بالخطاب - مع أن المراد أُمته خاصة ، اذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم ، أو أن يجاريهم على شيء نهاه الله تعالى عنه ، لينبّه الغافل .. كأنه يقول : ان هذا ذنب عظيم ، لا يُتسمَح فيه مع أحد ، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى ، لَسُجِّلَ عليه الظلم ... » (٤٧) .

ط - التحريم تدبير الهي حكيم لتوجيه فاعلية الانسان في رفعه القواعد من الحياة الانسانية، حيث أفرغه الله تعالى في تشريع أمر ملزم بالانتهاء ، حماية للانسان نفسه ، ورداً له الى سلامة فطرته ، وتنمية لطاقاته ، وتمكيناً له من استثمارها على الوجه الأكمل عوناً له على أداء تكاليفه الشاقة ، ووقاية للمجتمع البشري كله من أن يؤول به الفساد الى سوء المصير .

وعلى هذا ، فالتحريم في الاسلام - كما ترى - احدى الوسائل الناجعة التي اتخذها لتدبير فاعلية الانسان في رفعه القواعد من الحضارة الانسانية ، فلم يكن التحريم اذن مصادرة للارادة الانسانية الحرة ، أو تعويقاً صادراً لها عن تحقيق الذات الانسانية الكاملة ، أو اعتقالاتاً للملكاته أن تُعبر عن وظائفها التي خلقت من أجلها ، ولم يكن التحريم أيضاً - كما يقال - تضيقاً على الناس في معاشهم ، ولا ايقاعاً لهم في العنت^(٤٨) والحر^(٤٩) ، ولا افتئاتاً على مصالحهم الجدية المعقولة أو اهداراً لها ، ولا صدأً لهم عن مشتهياتهم ، ولا حرماناً من أطايب الرزق^(٥٠) التي خلقها الله لهم ، كل ذلك دعاوى متهافئة لا تصمد أمام النقد النزيه ، والتحليل العلمي الصحيح في ضوء تعاليم القرآن الكريم ، لما قد عرفت من أن « التحريم » ضرب من التدبير والتوجيه الالهي الحكيم ، أفرغه في تشريع أمر وملزم وقاية للانسان نفسه من أن تستبد به الشهوات ، نتيجة لجموح غرائزه الدنيا وطغيانها ، بحيث يرفعها فوق كرامة ذاته ، بل فوق مثله وقيمه ، وحينئذ تتملكه « الغفلة » عن حقائق هذا الوجود ، ولا ريب أن « الغفلة » فقدان الوعي للذات الانسانية ، بما يصرف عن العمل الصالح ، وتقدير قيمته ، ومبلغ أثره ، وهذا شر ما تُمنى به النفس البشرية من « نكسة » مما يطلق عليه القرآن الكريم كلمة « الخسار » أو « الخُسْر » تارة ، في مثل قوله تعالى : « والعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »^(٥١) وقوله تعالى : « ولا يزيده الظالمين الا خساراً »^(٥٢) وطورا يطلق عليه « نسيان النفس » في مثل قوله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »^(٥٣) وكلها معان تدور حول فقدان الوعي للذات الانسانية الكاملة ، ولمعنى هذا الوجود .

على أن ما يقال من أن « التحريم » صدّ للنفس عن مُشتهياتها ، يدحضه قوله تعالى : « يُحَلْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ »^(٥٤) وليس في « الخبائث » شيء يُشْتَهَى ، لا عقلاً ، ولا طبعاً ، وفي تعبير القرآن العظيم ،

بلفظ « الخبائث » ايعاء قوي ، ولفت للعقل الى طبيعة المحرمات من أنها تحمل في طياتها بذور خُبثها وفسادها ، مما يجدر بالانسان العقول الواعي ، أن يُحرم هذه « الخبائث » على نفسه عقلا ، قبل أن يحرمها الله عليه شرعاً ، وفي هذا ايماء أيضاً الى أن « حكمة العقل لا تنافي أحكام الشرع » .

على أن في قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا »^(٥٥) اشارة الى أن في « الطيبات غُنْيَةٌ » عن الخبائث « اذ لا يتعلق بالخبائث قصد معقول ، ولا مصلحة حقيقية » .

وعلى هذا ، فالمعاني التي قام عليها « التحريم » في الاسلام - كما ترى - تستوجب الانكفاف التلقائي ، أو الانتهاء الذاتي بحكم العقل ، والطبع السليم ، قبل أن يستوجبه نهي الشرع ، ولكن ليس معنى هذا أن حكم العقل مُقدم ، بل المراد أن كل ما جاء في الشرع ، لا نجد له في منطق العقل ما ينافيه !!

هذا فيما يتعلق بالذات الانسانية بخاصة ، وأما بالنسبة الى المجتمع البشري بعامة ، فإن مما لا ريب فيه ، أن الفساد المستشري ، واستضعاف الشعوب ، والاستعمار والاستكبار في الأرض ، والظلم ، والعدوان ، والبغي ، وشيوع الفاحشة ، وما الى ذلك ، من أكبر أسباب تدمير الحياة الانسانية نفسها ، لذا كانت من كبائر الاثم ، والتحريم فيها أشد ، طلباً للحكم على قدر الدليل ، أما أنها من كبائر الاثم ، فلقله عز وجل : « ظهر الفساد في البر والبحر ، بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقَهُمْ بعضَ الَّذِي عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يرجعون »^(٥٦) لأن كل أولئك - وما كان على شاكلتها - يناهذ القيم العليا التي هي قِوام الحياة الانسانية ، ولا ريب أن لا قيام لشيء ما مع ما ينافيه - كما ذكرنا - ومن هنا كان الدمار والهلاك ، الأمر الذي يستوجب بالبداهة اقامة الحياة الانسانية على أساس من الحق والعدل المطلق ، وخلال الخير ، والفضائل ، وهو ما جاء به الاسلام .

ي - التحريم كما يجري في « الماديات » التي هي على النقيض من « الطيبات » هو جار أيضاً في المعنويات - بما هي نقائص القيم - وبذلك « تتكامل » الوسائل المتخذة - مادياً ومعنوياً - و « تتكافل » في معالجة النفس الانسانية ، رصداً لها لتدبير المجتمع البشري على نحو يصون كيانه المادي والمعنوي على سواء ، بل أن وقاية الكيان المعنوي للأمة ، أن تتطرق اليه عوامل الوهن ، وأن ازالة كافة العوائق - من أسباب

التغلف الفكري والعلمي والخلقي والروحي ، مما يعترض سبيل ارتقائها صعوداً في معراج التقدم والازدهار - أبلغ أثراني تقدمها ، وتحسينها من العوادي المادية المؤثرة في توهينها ، أو النيل من مقومات بنائها الحضاري •

أما الماديات فقد سبق القول فيها مفصلاً ، وأما المعنويات ، فمرد تحريمها تفتيت القوى ، وانقسام الأمة على نفسها ، بما يجعلها شيعاً متناحرة ، وشراذم متنازعة ، ومن مثل التسلط ، والاستضعاف ، والاستعمار والقهر ، واستلاب الثروات ، وافساد ذات البين ، واشعال نار الفتنة ، والعصبية الطائفية ، والمذهبية ، والعنصرية ، سواء أكان ذلك على الصعيد الداخلي ، أم على المستوى الدولي ، وهو ما تجنح الدول الاستعمارية اليه عادة تحت شعارها المعروف « فَرَّقْ تَسُدْ » أو « السياسة أولاً » أي تجريد هامن قواعد الأخلاق ، وموازن القيم ، ومن شعار « الحق للأقوى » الى غير ذلك من الشعارات والمبادئ التي تنافي روح الاسلام رأساً ، وتنقض مبادئه وأصوله العامة الثابتة التي تتعلق بالمصلحة الانسانية العليا ، مما كان سبباً مفضياً الى استضعاف الشعوب المهورة في بلادها ، ونشوء ظاهرة الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، لتكون أمة هي أربى من أمة ، ومن تحكيم « القوة » في العلاقات الدولية ، دون اقامة أدنى وزن للحق والعدل ، اغتراراً بأدوات الحرب المتطورة ، والثروة وكثرة العدد والعُدَد ، وهذه هي « الجاهلية الحقيقية » روحاً ومعنى ومقصداً ، وان اتخذت صوراً ومظاهر حديثة ، وهو ما حرمة الاسلام تحريماً قاطعاً ، لأنه من كبائر الاثم ، في مثل قوله عز وجل : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (٥٧) توجيهاً للانسانية الى ما هو أقوم وأعدل ، وأجدى عليها ، لقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » (٥٨) وقوله عز وجل : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (٥٩) • بل يمكن أن يطلق على أسباب الظلم تلك « الرجعية الحقيقية » التي ترجع بالناس القهقري الى البدائية الأولى « شريعة الغاب » بما فيها من ارتكاس الانسانية الى حضيض البربرية والوحشية ، وعلى وجه أشد نكراً وشناعة ، بفضل مضاء الأسلحة الحديثة المتطورة الرهيبة •

هذا ، ولا يُخفي هذا الوجه من الشناعة ، التقدم المادي في اختراع الأدوات الأخرى من وسائل التقنية التي تيسر سبل الحياة ، وتقتصد من الجهد

الانساني المبذول ، بل إن ما تشيده هذه الوسائل من معالم الحضارة المادية ، لا يلبث أن تأتي عليه الهيمنة الدولية بالنقض والتدمير ، ولا سيما في البلاد المستضعفة ، وهو ما حذّر منه القرآن الكريم وحرّمه تحريماً باتاً ، في مثل قوله سبحانه : « ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » (٦٠) وقوله عز وجل : « ولا تَعَثُّوا في الأرض مفسدين » (٦١) وغير ذلك من الأصول العامة الثابتة .

ك - الأعراف الدولية ، أو الداخلية الطارئة ، وكذلك التقاليد الموروثة المستحكمة في النفوس ، لا تقوى على تغيير « أساسيات » الاسلام ، وأصوله العامة الثابتة ، اذا كان بينهما تناف ، أو تضاد ، ولا يجوز استبدالها بها ، لأن التشريع الاسلامي ليس محكوماً بالأعراف المتغيرة ، والتقاليد الموروثة المنافية ، مهما استحكمت معادها في النفوس ، واستوثق أمرها في المجتمع ، أو استقر على الصعيد الدولي ، بل هو حاكم عليها جميعاً . من البدهي أن كل ما ينكره التشريع الاسلامي من الظواهر الاجتماعية ، أو الأعراف السائدة ، أو التقاليد الموروثة ، واجب التغيير والازالة ، لأنه حاكم على كل أولئك ، ومُحكّم فيها ، لقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » (٦٢) خصيصة لازمة من خصائص المؤمنين ، ولقوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

ل - كثير من الأعراف والعادات السائدة والمنافية لأصولنا الثابتة في التشريع الاسلامي ، قد تسربت الى بلادنا بفعل « الاستهواء » بتأثير من التيارات الأجنبية الوافدة ، فعالجها الاسلام بوسيلة نفسية مماثلة ، من « الانكار القلبي الدائم » مع عقد العزم على التغيير ، أن لم يستطع في الحال ، كيلا تجد لها في النفس مستقراً ، أو تصادف فيها هوى ، اذ الالف حامل على الاعتقاد ، وصارف - في الوقت نفسه - عن التبصر والتقدير والتقويم .

هذا ، ومن البيّن أن مبدأ « وجوب الانكار القلبي الدائم » مع عقد العزم على التغيير ، وربطه بالعقيدة ، ضماناً لتأصيله ، قد شرع وسيلة نفسية للحيلولة دون أن يجد المنكر له في القلب مستقراً ، كيلا تألفه النفس ، بحكم تكرار الوقوع ، اذ الالف سبيل الاستمرار والرسوخ ، بحيث يصبح « المنكر » أمراً معتاداً ومألوفاً ، ولا جرّم أن الاعتقاد المألوف ، صارف عن التقدير والتقويم والتبصر ، كما هو الشأن في كثير من تقاليدنا وموروثاتنا التي تتنافى وأحكام الشرع الحنيف ، بينما يظنها كثير من الناس - للأسف - أمراً مشروعاً ، على الرغم من أن بعضهم يدرك مالها من آثار ضارة في التعامل ، والتصرف والسلوك ،

وقد تكون من « العوائق » التي تعترض سبيل تقدم الأمة ، وتحول دون تحصيل مصالحها الحقيقية ، وفي هذا من الضرر والفساد الاجتماعي ما فيه !!

هذا ، وكثير من الأعراف والعادات السارية قد تسربت الى بلادنا بتأثير « الاستهواء » الذي يحمل الناس على اتخاذها ، بل واعتقادها ، ثم الخضوع لأحكامها ، بفعل التيارات الأجنبية الوافدة ، دون تعقل أو تمحيص ، فكان « مبدأ وجوب الإنكار القلبي » مع عقد العزم على تغيير المنكر عند الاستطاعة من أصل وأنجع الوسائل النفسية لصيانة كيان الأمة مما عسى أن يتسرب اليها من الأعراف الفاسدة ، أو ما تتواضع هي عليه ، توهماً منها أنه يخدم مصلحة من مصالحها الاجتماعية أو الاقتصادية ، والاسلام اذ يشرع المبدأ ، يشرع بازائه الوسائل الممكنة لتنفيذه حسب الظروف والأحوال ، وانتهى بالوسائل هنا الى « الحالة النفسية » هذه ، معالجة منه لما يعتريها من الالف أو الاستهواء - كما ذكرنا - وقوى من معنوياتها ، لتقف محاجة دون استقراره فيها ، ثم ربط هذا المبدأ ووسائله الممكنة بأصل العقيدة « الايمان » ترسيخاً له في النفوس : « فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » (٦٢) ولقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٦٤) وفي اقتران الايمان بهذا المبدأ ، ايماء بأنه خصصية ملازمة من خصائص المسلمين الدينية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو التشريع كله بجميع فروعه .

م - لا ينقر الاسلام عرفاً أو تقليداً ، مهما كان مستحكماً في النفوس ، الا اذا كان يستند أساساً الى « مصلحة جدية حقيقية معقولة ومعتبرة » بحيث تحافظ على مقصد من مقاصده الأساسية ، وبذلك كان العرف الصحيح عاملاً فعالاً في تيسير سبل الحياة ، من جهة ، وعنصراً هاماً من عناصر التطور في الاجتهاد التشريعي في الفروع ، استجابة لمصالح الناس ، من جهة أخرى .

وعلى هذا ، فقد أضحي جلياً - فيما نحسب - أن الأعراف والتقاليد الموروثة المستقرة ، محكومة دائماً بمعايير هذا التشريع ، يصطفي منها ما تقره أصوله الثابتة ، وبذلك حال دون تأثير الأعراف الفاسدة التي استقرت في النفوس حتى مرّدت عليها - استهواء أو تواضعاً - أقول : حال دون تأثيرها في مقومات البنية المعنوية للأمة ، ولا سيما اذا كانت تشكل عائقاً في سبيل تقدمها الحضاري ، وفتح

— في الوقت نفسه — باب « الأعراف الصحيحة » المفيدة على مصراعيه ، رفعا للخرج عن الناس ، لأن نزع الناس عن أعرافهم الصحيحة ، ايقاع لهم في العنت والمشقة البالغة ، وحائل دون تمكينهم من تحصيل مصالحهم الحقيقية المشروعة ، اذ كل عُرْفٍ لا يتواضع الناس عليه ولا يرضون باتخاذه « حكماً » فيما بينهم في تعاملهم ، الا اذا كان يستند أساساً الى « مصلحة » يتوخَّونها ، لِمَا تَمَسُّ حاجتهم الى تحقيقها ، والشارع لا يُقرُّ عرفاً مهما كان مستحكماً في النفوس الا اذا كانت « المصلحة » التي يستند اليها تحافظ فعلاً على مقصود الشرع ، وبذلك كان « العرف الصحيح المعتبر » عنصراً هاماً من عناصر التطور في التشريع الاجتهادي في الفروع ، وأسلوباً ايجابياً يصون النفوس من أن تستهويها الأعراف والتقاليد المنكرة .

نخلص من هذه « المقدمة » الى تناول عناصر هذا البحث تفصيلاً ، غير أن هذا « الموضوع » لما كان متعلقاً بأساليب القرآن الكريم في معالجة النفس الانسانية ، وتوجيه قواها ، وتنمية هذه القوى والملكات ، فقد أضحي لزاماً أن نتناول بالبحث — بادئ ذي بدء — « طبيعة الفطرة الانسانية » كما يصورها القرآن الكريم في جملة من آيه ، اذ لا بد في المعالجة من تشخيص الشيء الذي يُراد معالجته ابتداءً ، ليُرى مدى ملائمة الأسلوب المتخذ لذلك ونجاعته !

ثانياً — عناصر البحث :

١ — تكيف طبيعة الفطرة الانسانية في القرآن الكريم ، تمهيداً لتبيين مدى ملائمة الأساليب ، ونجاعتها في المعالجة .

لم تتفق آراء العلماء — قداماهم ومحدثيهم — ممن لهم بصيرة في مفاهيم القرآن الكريم ، ومعاناة جدية في تبيينها وتحديدتها — لم تتفق آراؤهم على تصور موحد لماهية هذه الفطرة ، بما أودعت من قوى نفسية ، وملكات ، وغرائز سليقية ، وميول فطرية ، ومنشأ ذلك — فيما نعتقد — أن مواقع تصويرها في ظواهر الآي مختلف :

أ — فَبَيْنَا ترى ، ان طبيعة الفطرة الانسانية خيرٌ لا أصل للشر فيها ، في مثل قوله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » (٦٥) مما هو صريح في أن الدين

هو الفطرة ذاتها ، والدين خير كله ، لامنزع للشر فيه ، فكذلك الفطرة ، سواءً بسواء ، خيراً ، ونقاءً ، وصفاءً ، وطُهرًا ، وهذا هو مفاد المنطوق الصريح للآية الكريمة التي تلونا ، بل تراه يؤكد هذا الأصل ، بأن أحداً من الناس لا يملك أن يُبدّل من طبيعة هذه الفطرة أصلاً ، لقوله عز وجل : « لا تبدّل خلق الله » (٦٦) وفي ذلك ايحاء أيضاً ، بأنه لا يجوز أن يخرج الانسان عن مقتضاها ، أقول : بينا ترى هذا التبيين الجلي لماهية الفطرة ، اذ بظاهر آيات أُخَرٍ يفيد :

ب - أن الفطرة الانسانية قد خلقت « قابلة للخير والشر » على سواء ، فكانت مفطورة على هذا الاستعداد لكليهما ، وليس على « الخير » المحض فحسب ، تجد هذا في مثل قوله تعالى : « ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجراً كبيراً ، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، وَيَدْعُ الانسانُ بالشرِّ دعاءً بالخير ، وكان الانسان عجولاً » (٦٧) ، وفي مثل قوله : « قد أفلح من زكّاه ، وقد خاب من دسّاه » (٦٨) وظاهر - بالنسبة الى الآية الأولى - أنه لولا كونها مستعدة بطبيعتها للخير والشر على سواء ، لما كان في وسع الانسان الكفر والفسوق والعصيان ، تحدياً لأوامر الألوهية ، ولما كان في استطاعه أيضاً ، أن ينزع الى الدعاء بالخير والشر على وزانٍ واحد ، وكذلك الشأن في الاستدلال بالآية الثانية ، حيث أشارت الى أن « تركية النفس بالتقوى والصلاح ، وأن تدسّيتّها وافسادها بالمعاصي والموبقات » كليهما - من التزكية والتدسية - رهن بالارادة الانسانية الحرة ، مما ينبىء عن أنهما فرع عن استعدادها فطرياً لذلك ، يؤكد هذا النظر أيضاً ، أن الذي فطرها قد ألهمها فجورها وتقواها (٦٩) ، ويؤكدّه أيضاً قوله عز وجل « وهديناه النجدين » (٧٠) وهما طريقا الخير والشر ، وهذه الأدلة - كما ترى - قد تضافرت كلها على أن طبيعة الفطرة الانسانية ، ليست خيراً محضاً ، بل هي مفطورة على الاستعداد للخير والشر ، وعلى سواء ، كما قدمنا .

ج - هذا ، واذا أضفنا الى ما سبق ، آيات أُخَرٍ يتبادر من ظاهرها ، أن الانسان قد فطر أصلاً على الهلع ، والخور ، والجزع ، والشح - وهي خصال ذميمة - الا أن يتولاه « الايمان » بالله سبحانه ، والأداء الدائم للعبادات المفروضة ، بالتهذيب والاصلاح ، والتوجيه ، اذا أضفنا هذا المعنى الى ما سبق ،

أدركنا مدى الشُّقَّة التي تفصل بين هذه المعاني لظواهر الآي ، بعضها قبل
بعض ، من ذلك مثلاً قوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ
الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
دَائِمُونَ » (٧١) . على أن بعض الآي في تصويرها للنفس الانسانية توحى بأن
الانسان - لِغَلَبَةِ نَزْعَةِ الشَّرِّ فِيهِ - لَا يَنْتَفِعُ مِنَ التَّجَارِبِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي مَرَّتْ
بِهِ - صِلَفاً أَوْ غُرُوراً - مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا
نَا لَجْنِبِهِ ، أَوْ قَاعِداً ، أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ، مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا
إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وَلَا يَخْفَى مَا فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى : « دَعَا نَا لَجْنِبِهِ ، أَوْ قَاعِداً ، أَوْ قَائِماً » ، مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى فُرْطِ مَا أَصَابَهُ
مِنْ هَوْلِ الرِّزْوَةِ ، وَفِدَاخَةِ الْخَطْبِ ، وَعَظَمِ الْكَارِثَةِ ، الْمُسْتَفَادِ مِنَ الذُّهُولِ
فِي الدَّعَاءِ ، يَتَقَلَّبُ فِيهِ عَلَى سَائِرِ أَحْوَالِهِ ، وَبِمَا اعْتَرَاهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ ،
وَهَذَا مَا يُؤَدِّيهِ مَعْنَى الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، حَتَّى إِذَا زَايَلَتْهُ الْمَصَائِبُ ،
وَانْكَشَفَتْ عَنْهُ الْمُحَنُّ ، لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ هَذِهِ التَّجَرُّبَةِ الْمَرَّةَ ، لِاسْرَافِهِ فِي أَمْرِهِ - كِبِراً
وَعُرُوراً - ، مِمَّا يَوْمَىءُ بَأَن « الْغَفْلَةَ » إِذَا كَانَتْ قَدْ اسْتَفْرَقَتْهُ بِحَيْثُ صَرَفَتْهُ عَنِ
الِاعْتِبَارِ ، وَالتَّمَاسِ الْعِظَةِ مِنْ تَجَارِبِهِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي مَرَّ هُوَ بِهَا ، بِجُمُوعِ نَفْسِهِ
الَّتِي تَبَدَّدَتْ مِنْهَا شَعَاعَا ، وَعَايْنَهَا وَاسْتَشْعَرَهَا بِجُمْلَةِ أَحَاسِيْسِهِ وَمَشَاعِرِهِ ،
أَقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُهُ ، فَهُوَ عَنِ التَّمَاسِ « الْعِبْرَةَ » مِنْ تَجَارِبِ
الْمَاضِيْنَ أَبْعَدَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِأَهْوَالِ الصَّرَاعِ الْعَاتِي عَلَى الْمَسْرُوحِ التَّارِيخِيِّ فِي الْمَاضِي
السَّحِيقِ ، وَقَعٌ عَلَى وَجْدَانِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشَاهِدْهُ ، أَوْ يَشَارِكْ فِيهِ ، فَلَمْ تَعَانَ
نَفْسُهُ مِنْ آثَارِ كَوَارِثِهِ وَأَرْزَاءِهِ شَيْئاً ، وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُهُ خَيْرَةً بِطَبِيعَتِهَا ، غَيْرَ
مَفْطُورَةٍ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ أَصْلاً ، لَانْبَعَثَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ مَا يَوْقُظُ وَعِيَهُ
لِذَاتِهِ ، وَلَا اسْتَحْضَرَتْ لِمَدَارِكِ حِسِّهِ آثَارَ تَجَارِبِهِ الْمُرَّةِ بِمَا فِيهَا مِنْ صَنُوفِ
الْمُحَنِّ وَالْبَلَاءِ ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ ، « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ » (٧٢) : « فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا » (٧٣) وَلَانْبِثَقَ مِنْ أَغْوَارِ نَفْسِهِ نُورُ الْحِكْمَةِ لِيُبَدِّدَ غَوَاشِيَ ظُلُمَاتِ الْغَفْلَةِ
السَّادَةِ الَّتِي رَانَتْ عَلَى بَصِيرَتِهِ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : « إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ،
وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ » (٧٤) وَلَكِنَّهَا النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ صَرَفَتْهُ عَنِ التَّمَاسِ الْعِبْرَةَ مِنْ

المحنة التي كانت فتنة ، وكيف تكون خيرةً بطبيعتها وهي « أمارة بالسوء » بصريح النص القرآني ، قوية الايحاء به ، بارعة التزيين له ، مسرفة الاغواء في الحمل عليه : « كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون » (٧٥) وليس هذا من طبيعة الخير وخلالها في شيء ، بل هو الى أصل الشر أقرب ، وبه أوثق .

يؤكد هذا ، ان بعض الآي تصف الانسان - وعلى وجه التأكيد - بأنه جحود لفضل ربه ، كنود لاحسانه اليه ، في قوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » (٧٦) ولا ريب أن كُفران النعمة صفة ذميمة لا تصدر عن طبيعة خيرة أصلاً ، بل تراه يأخذ الصلف ، والكبر ، والغرور ، فيزعم أن النعمة تصيبه بجهد نفسه دون أن يكون لها صلة بفضله ، تجد هذا في مثل قوله عز وجل : « فإذا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٧٧) .

فالانسان - كما ترى - يعرف الله تعالى في الأزمة ، ويجحد فضله في النعمة ، وغضارة العيش . هذا ، ونفي العلم عن أمثال هؤلاء في تذييل الآية الكريمة التي تلونا ، كناية عن الغفلة ، وفقدان الوعي للذات ، حين تستغرقها الشهوات ، وتَرِينُ عليها الغواية والضلالة ، ويتملكها الصلف والغرور .

د - الامام الغزالي يصدر عن آراء متناقضة فيما يتعلق بتحديد طبيعة الفطرة الانسانية.

لا يستقيم بالامام الغزالي النظر في صدد تحديده لطبيعة الفطرة الانسانية ، فتراه تارة يصفها بأنها : « مفطورة على الشر » وأخرى يراها خلقت وفي جبلتها « الاستعداد الفطري للخير والشر معاً » وطوراً يذهب الى أنها « خيرة » بطبيعتها (٧٨) والظاهر أن منشأ هذا التضارب عنده ، هو اختلاف ما يعتري الانسان من الحالات النفسية التي صورتها ظواهر الآيات التي تلونا ، لدواعٍ أو مؤثرات خارجية .

هـ - ابن خلدون يرى أن الفطرة الانسانية قابلة للخير والشر في أصل جبلتها ، ولكنها الى خلال الخير أقرب .

ترى مذهبه هذا واضحاً في « المقدمة » حيث يقول في صدد تقريره لجدارة الانسان بالملك والسياسة : « لَمَّا كَانَ الْمَلِكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ ، لَمَّا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَاعَةِ كَمَا قُلْنَا ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ ،

بأصل فطرته ، وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر انما جاء من قبل القوى الحيوانية فيه ، وأما من حيث هو ، فهو الى الخير ، وخلاله أقرب ٠٠» (٧٩) .

٣ - بعض أقطاب الفكر السياسي في الغرب يذهب الى أن الانسان شرير بطبيعته حافل بالنقائص .

هذا الرأي للفيلسوف السياسي (هوبز) وأغلب الظن أنه مستقى من بيئة معينة ، ساد فيها ظلم الملوك في عصره ، وشاع الفساد ، وانعدمت فيها آثار الهداية الالهية ، فهذا الوضع اذن ، له دواعيه وأسبابه ، أو هو ثمرة لتجاربه الشخصية التي حددت وجهة نظره ، وليس نتيجة طبيعية للدراسة الموضوعية للفطرة الانسانية من حيث هي ، يرشدك الى هذا ، تعميم وصفه وحكمه ، حيث يقول (٨٠) : « الانسان كائن شرير ، حافل بالنقائص ، جبان ٠٠ » (٨١) وواقع الحياة الانسانية ينافي هذا التعميم .

و - موقفنا ازاء ظواهر الآي المتعارضة ، واستخلاص مراد الشارع منها بالتوفيق بينها أصولياً ، وعلى ضوء من الروح العام للتشريع الاسلامي .

لا يسعنا ازاء هذا التضارب في الآراء حول « طبيعة الفطرة الانسانية » استناداً الى ظواهر بعض آي القرآن الكريم ، الا أن نبين وجه الحق في هذه المسألة ، بالاستدلال والتوجيه الأصولي ، اذ لا يمكن تحليل توجيهات القرآن الكريم لقوى النفس الانسانية ، ومعالجة مناشيء عقدها ، وحالاتها العارمة الا بعد تحديد طبيعة فطرتها ، وليرى مواقع تلك التوجيهات ، وأساليب المعالجة التي تتكيف بتلك المواقع ، فلا بد اذن من أن نقطع فيها برأي ، في ضوء ما نستخلصه من مراد الشارع من تلك النصوص المتعارضة في ظاهرها ، والمتسقة من حيث معانيها ، ووظيفة الباحث - في مثل هذه الحال - أن يكشف ذلك الاتساق القائم ، دون افتعال أو تطويع ، أو استكراه ، اذ لا تخالف في معاني القرآن الكريم ، ولا تضارب ، على أن يدعم الباحث ما يكتشفه من المعنى المتسق للنصوص ، بالأدلة وبالروح العام للتشريع ، لأن « التوفيق » ضرب من التأويل ، والتأويل لا بد له من موجب ومسوغ .

١ - فرق بين الحالات النفسية العارضة التي تعترى الانسان عادة ، أثراً لعوامل خارجية مؤثرة ، أو لسوء استخدام الانسان لقواه النفسية ، وبين جوهر فطرته الانسانية .

ينبغي أن نسترعى النظر - بادىء ذي بدء - الى أن ثمة فرقاً جوهرياً بين

الحالات النفسية العارضة التي تعتري الانسان صدىً لعوامل خارجية مؤثرة ، سواء أكان مصدرها البيئة الخاصة - ولا سيما في المراحل المبكرة للنشأة الأولى - أم العامة ، وما يسود فيها من أعراف ، وتقاليد موروثة متحكمة ، أو ما يجري فيها من تيارات فكرية جارفة ، وفلسفات اجتماعية وسياسية وافدة ومتخالفة ، أو ما يستقر فيها من ترّهات أو معتقدات بدائية ، أو ما يتعاورها من موجهات دولية مضلّلة تموج بها الوسائل الحديثة للاعلام ، أم غير ذلك من المؤثرات الفعالة ذات الأصداء البعيدة المدى في توجيه القوى النفسية ، ولا سيما لدى محدوددي الثقافة ، ناهيك عما يكون ثمة من أثر ناجم عن سوء استخدام الانسان لملكاته ، أو تعطيله واهماله لقواه النفسية ، بحيث يُعقِبُ ذلك تخلفاً اجتماعياً وسياسياً وفكرياً ، ونفسياً ، وروحياً ، من شأنه أن يُضعف أو يُعجز تلك القوى عن تأدية وظائفها التي من شأنها أن ترتقي بالانسان الى ما قدّر له أن يسمو ، ولعل في قوله تعالى : « إن السمع ، والبصر ، والفؤاد ، كلٌ أولئك كان عنه مسئولا » (٨٣) ما يشير الى ذلك المعنى ، وهي « مسؤولية » نراها منصبة أولاً على كيفية التصرف في هذه القوى - تنمية واستثمارا - وفيما استخدمت ووظفت ، وبِمِ نُمِّيَت ، أو على التصرف اذا كان على النقيض من ذلك ، والسمع والبصر والفؤاد هي منافذ العلم والمعرفة التي يتم بها إعلاء شأن « الذات الانسانية » ونرى هذه « المسؤولية » متجهة أيضاً الى الانسان عن مدى صيانتها لتلك القوى ، والمحافظة عليها ، أن تتسرب الى أصالتها ، وصفاءها ، طوارئ الآفات المادية والمعنوية ، وعوادي الفتنة ، والاغواء ، وعوامل اثارة الغرائز الدنيا ، وبواعث الأهواء التي قد تبلغ حداً من القوة والعنفوان بحيث تطفئ على حكمة العقل ، وتهيمن على احياءات الضمير الحي ، مما يعكّر عليهما صفوهما ، ويَقْصُرُ من نفوذها ، وَيَفْلُ بالتالي من قوة العزم ، وصلابة الارادة الخيِّرة .

على ان طغيان هذه العوامل الفعّالة هي منشأ « الغفلة » و « نسيان الذات » - كما أسلفنا - ولذا قد تكرر التحذير منها في مواضع شتى من القرآن ، اذ تراه يُصوّر هذا المعنى - على سبيل المثال - في أصل البشر الأول ، مشيراً في ذلك الى العامل الأساسي الذي أهبطه الى الأرض ، بقوله تعالى : « ولقد عهدنا الى آدم ، فَنَسِيَ ، ولم نجد له عزماً » ، فالغفلة ونسيان الذات ، وخَوَرُ العزم ، انما يكون باهمال أو اطرّاح الأسباب التي تُعلي شأنها ، مما يعرقل سيرها على

سَمَت ما تستوجبه أصالة فطرتها - أقول : كل أولئك ، كان بمؤثر خارجي هو من التفرير والاغواء بسبب ، فلقي جزاءَ نسيانهِ ذاته' ، وخَوَرِ عزمه في المقاومة .

ألا ترى الى الجاهلية الأولى - على سبيل المثال - كيف أفسدت « الوثنية » فيها أصالة الفطرة الانسانية ، وشلت طاقات العقل ، والضمير ، والنفس والروح ، حتى تضاعل أمرها جميعاً مما أعجزها بالتالي عن أداء وظائفها التي تسمو بها الذات الانسانية ، ويعلو شأنها ، من رُشد العقل ، وقوة ايحاء الضمير - بالارتياح والرضا ، أو الملامة والتأنيب - ونزوع النفس واستشرافها الى مطامحها من المثُل والفضائل ، وسموُّ الروح الى الأفق العلوي الذي يصله بالخالق الباريء جل وعلا ، اذ الروح الانساني نفحة من روح الله تعالى بصريح النص : « فاذا سَوَّيْتُهُ » ، ونفخت فيه من روحي ، فقَعُوا له ساجدين » (٨٤) . سجود اكبار وتحية لرفعة شأنه ، وعِظَم آثار ملكاته ومواهبه !!

فالوثنية تيار عقائدي بدائي خرافي جارف ، قد استغرق الجزيرة العربية كلها ، أيام الجاهلية ، وتحكَّم فيها ، فكانت - بتعدد صورها المزرية ، وبخرافاتها وتُرَّها - عدواناً خطيراً على الفطرة ، وليست عنصراً نابعاً منها ، بل كانت امتهاناً لها ، وآفة بيئية قد شلت من طاقاتها ، وقواها ، فأركستها في عِمِيَّةٍ جاهلية ، فاقدة الوعي لكيانها وذاتها الانسانية والحضارية ، فأنستها بالتالي رسالتها ومهامها في هذا الوجود ، ثم تملكتها - نتيجة لذلك - آفات الفرقة ، والانقسامات ، وحماسة العصبية الجاهلية الرعناء التي كانت تسري في كيانها روحاً ، وفي دماؤها سعيراً سريان النار في الهشيم ، حتى استنزفت دماءَها في احتراب ضار مستمر لا ينطفئ له أوار ، وقطعت عزيز أرحامها ، فلم يعد بوسعها أن تدرك لها في هذا الوجود من معنى ، حتى جاء الاسلام ، فاجتثَّ الوثنية من أصولها أولاً ، بعد محاربتها حرباً لا هوادة فيها ، بصبر وجلد واستماتة ، سنين طوالاً - باعتبارها آفة من أعظم آفات البشرية ، بل منشأ مهانتها ، وعلة تبديد طاقاتها - وردَّ العرب الى أصول فطرتهم ، بعقائده ، وعباداته ، وآدابه ، وتشريعاته الملزمة ، حيث أرسى بها أصول « وحدتهم » التي كانت مصدر عزتهم وقوتهم ومنعتهم ، بل كانت تلك العقائد والعبادات ، والآداب والتشريعات ، مصدر اشعاع روحي وأخلاقي ، وفكري ، أيقظ فيهم وعيهم لذاتهم الانسانية الحضارية بعد أن لم يكن

لها تصور في مخيلتهم ، ولا رسْم في نفوسهم ، بل ولا شعور في أحاسيسهم ، أشار الى ذلك قوله تعالى - على سبيل المثال : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم »^(٨٥) وأوحى اليهم أن مناط ذلك هو « الاعتصام بحبل الله ، الذي جمعهم على قلب رجل واحد ، لأول مرة في تاريخهم ، وحذرهم أن يعودوا الى مكانتهم الأولى من الانشقاق ، والانقسام الذي أضعفهم أمام عدوهم ، وذهب بقوتهم ومنعتهم : « ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم »^(٨٦) كما وحد غايتهم في هذا الوجود ، لتتحد وجهتهم اليها ، وتستقطب سعيهم فيها ، وليس أضرّ على الأمة من أن تتفرق بها السبل ، فيصبحوا طرائق قديماً ، فكانت تلك التعاليم والأصول والتوجيهات هي التي أخرجت لنا أمة برهنت - واقعاً وعملاً - أنها خير أمة أخرجت للناس ، بما كان لها من « فاعلية » عجيبة في الواقع التاريخي ، مصداقاً لقوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »^(٨٧) ، ونوه القرآن الكريم بأكبر حدث تاريخي في حياة الأمة ابان نزوله ، وهو تحقيق هذه « الوحدة » فعلاً ، فبلغت بها شأواً في قوتها ومنعتها أن شملت الجزيرة كلها ، الأمر الذي كان مستعصياً على التحقيق قبل ذلك الى حد الاستحالة ، أثراً لآفة الوثنية التي أنقذهم منها ، وعصمهم من مُعقباتها - ويلحق بالوثنية ما كان على شاكلتها معنى وأثراً - وامتن الله عليهم بذلك فيما تلونا آنفاً بقوله تعالى : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »^(٨٨) ولذا أمرهم الله أمراً جازماً ، بأن يلتزموا دائماً - وعبر الأحقاب المتطاولة - بما كان سبباً في انقاذهم أول مرة ، مما كانوا فيه من الضياع ، والشتات ، والتمزق ، والاحتراب ، وتسافك الدماء ، وتبديد الطاقات ، ونسيان الذات ، والتردي في مهاوي الضلالة ، والجهل والغنى ، حيث يقول سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »^(٨٩) وقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »^(٩٠) كما تلونا .

أما « توحيد الغاية » فتراه في مثل قوله عز وجل : « والذين جاهدوا فينا ، لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »^(٩١) وقوله تعالى : « وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم »^(٩٢) وقوله عز وجل : « إن صلاتي ، ونسكي ومحياي ومماتي ، لله رب العالمين ، وبذلك أُمِرْتُ ، وأنا أول المسلمين » .

فالغاية القصوى من الوجود الانساني فيما تحدده مثل هذه الآيات الكريمة هي اسلام الوجه لله تعالى ، وابتغاء رضاه ، والجهد في سبيله ، لاقامة الحياة الانسانية الكاملة بما تنهض على الأسس والمبادئ التي جاء بها شرعه الموحى به ، تحقيقاً للظفر بسعادة الدنيا والآخرة ، والاتجاه الى الله تعالى انما يعني - فيما يعني - الاتجاه الى الكمال ، والخير الأسمى : « والله المثل الأعلى » .

هذا ، وما أمر المهاجرين والأنصار في « امتزاج فطرتهم بمعاني الوحي الالهي » الا نموذجاً فذاً ، وخالداً أبداً الدهر ، وليس أدل على سمو المبدأ ، وصدقه ، وعظمته وواقعته ، من عظيم آثاره !!!

٢ - من المؤكد أن القرآن الكريم ، اذ يقابل « الدين بالفطرة » على أنه عينها - أصالة وجوهاً ومقتضيات - ويقرر صراحة أيضاً أنه لا تناقض بينهما ، وأنه « الدين القيم » الفطرة قيّمة ، وأنه « لا تبديل لخلق الله » فلا تبديل لشرع الله ، مما يوحى أيضاً ، بأنه لا يجوز الخروج عن مقتضياتهما ، - كما بينا - أقول : ان القرآن الكريم ، اذ يعقد هذه المقابلة ، ويؤكد تلك القضايا ، ولوازمها المنطقية ، فانما يقصد الى تبين « وجه الحق » في جوهر الفطرة الانسانية « وأنها مقطوعة أصلاً على الخير المحض ، لتتم هذه المطابقة بينهما ، وتحقق امكانية تنفيذ التكليف على الوجه الأكمل ، بل تيسير هذا التنفيذ ، ليكون في حدود السعة ، اذ الدين خير كله ، بلا ريب ، ولا أصل للشر فيه ، فكذلك الفطرة ، ولو كان التناقض بينهما ، على ما هو الشأن في الخير والشر ، لما تأتى التكليف والتنفيذ والامتثال الطوعي ، اذ لا يثبت الشيء مع ما ينافيه ، لاستحالة اجتماعهما ، فضلاً عن الامتزاج والائتلاف ، هذا من حيث « المنطق العقلي » .

أما من حيث « المنطق الروحي والديني » فان تكليف الفطرة الانسانية بكونها مجبولة على الشر - كلياً أو جزئياً - أمر لا يتسق والروح العام للتشريع الاسلامي ، من قبل أنه قائم أساساً على « الحكمة البالغة » لقوله سبحانه : « قل فله الحجة البالغة » والحجة قوامها الحكمة ، (٩٢) وعلى رحمته التي وسعت كل شيء : « ورحمتي وسعت كل شيء » (٩٤) : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٩٥) وعلى عدله المطلق سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم » (٩٦) فضلاً عن أنه جل وعلا ، منزّه عن « النقائص » فكان من غير المتصور عقلاً وشرعاً ، أن يفطر الجبلة الانسانية على الشر المحض ، أو أن يكون له - سبحانه - في الشرّ غرض معقول أو مقصود !

٣ - التنسيق بين معاني الآي التي تلونا آنفاً - بما تُشكّل 'ظواهرها' ، أو يبدو فيما بينها من تعارض ظاهري ، حتى غدت منشآتضارب آراء العلماء بصدد تحديدهم لطبيعة الفطرة الانسانية من خلالها - تنسيقاً يكشف عن المراد الحقيقي للشارع منها •

وتفصيل ذلك : أن المستقرىء لما أسبغ القرآن الكريم من أوصاف النقائص بوجه خاص ، على النفس الانسانية ، والمتتبع لموارد استعمالها فيها ، يرى أنها أُفرغت في صيغ «المبالغة» غالباً ، للدلالة على الامعان فيها ، وكثرة وقوعها ، من مثل وصف النفس بأنها مصدر الأمر بالسوء ، والاغراء به ، بل والدأب في الحمل عليه ، في مثل قوله عز وجل : «إن النفس لأماراة بالسوء» (٩٧) ومن وصف الانسان بِخَوَرِ العزم تجاه البأساء والضراء ، والكوارث والمحن ، وأنه يستبد به الشح والضنّة اذا ما أصابته نعمة سايغة ، فيمسك عن الانفاق وعن مدّ يد العون في الأزمات والضوائق ، حتى لكأنّ ذلك فطرة فيه ، في مثل قوله عز وجل : «إنّ الانسان خلق هلوغاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً» (٩٨) وهما صفتان ذيمتان ومن خلال الشر ، مما ينبىء عن فساد الطبع جبناً ، وشحاً ، وأنانية ، أقول :

٤ - ان اسباغ القرآن الكريم مثل هذه الأوصاف من النقائص على النفس الانسانية ، وعلى هذا النحو من المبالغة ، لا يغيّر من حقيقة الفطرة التي برأ الله الناس عليها ، من حيث انها مفطورة أصلاً على «الخير المحض» الذي لا مكان للشر فيه باطلاق ، على ما بيّنا آنفاً ، بل ان وصفها بالنقائص المبالغ فيها ، ينطوي - في الوقت نفسه - على سر بلاغي يدركه ذوو الحس المرهف بما يتركه مثل هذا الأسلوب البياني من وقع على الوجدان ، ومن أثر يوحى بحقيقة المعنى المراد القائم على التشبيه والمجاز بالدليل الصارف عن المعنى الحقيقي المتبادر من ظاهر اللفظ في أصل وضعه اللغوي ، مما يجعل التوفيق ممكناً بين الوصف الكاشف عن طبيعة الفطرة ، وجوهرها من جهة ، وبين الوصف الذي جاء في ظاهره مناقضاً ، من جهة أخرى ، ليدل على ما يكون طارئاً على هذه الفطرة ، وعدواناً عليها ، لعوامل أخرى مؤثرة ، كما أسلفنا • هذا ، وبالنظر الى كثرة وقوع مثل هذه النقائص ، والامعان فيها من جانب الانسان ، عبر عنها بصيغة المبالغة مجازاً ، حتى لكانها فطرة متصلة - كما ذكرنا - لا على أن تلك «النقائص» جزء من ماهية فطرته!

٥ - الملحظ الدقيق الذي التفت اليه الامام الزمخشري في التنسيق بين الظواهر المتعارضة للنصوص ، ينهض بالتوفيق بينها على نحو يؤكد أصل الخيرية في الفطرة الانسانية •

على أن امكانية التوفيق الذي يرفع هذا التناقض الظاهري بين وصفها بالخير ، ووصفها بالشر وخلاله في وقت معاً ، تبدو في أن الوصف بالخيرية جاء على

سبيل الحقيقة ، بخلاف الآخر - وهو الوصف المناقض - فقد جاء على سبيل المجاز المدعم بالدليل الصارف ، وهو المنحظ الذي التفت اليه الامام الزمخشري ، وتفصيل ذلك : ان القرآن الكريم ، اذ يتجه بهذا الأسلوب البياني بأسباغ أوصاف النقائص على الانسان الذي أخذ نفسه بالامعان فيها - وهي تنطوي على معنى الازدراء به بحيث تشعره بالتعنيف البالغ على عكوفه على أسباب نقائصه ، ودأبه على صدوره عنها ، حتى لكأنه مفطور عليها - أقول : ان القرآن الكريم اذ يتخذ هذا الأسلوب في معالجة المسرفين في أمرهم ، ايقاظاً لوعيهم لذوات أنفسهم ، فذلك من أجل «تصوير الحقيقة الواقعية في المجتمع» تنفيراً للانسان من أن يستقر وضعه عليها ، لما تفضي اليه من ضعة الشأن ، ونسيان الذات ، والغفلة المقيمة عن أداء مهامه التي كلفته بالنهوض بها رسالة الوجود الانساني والحضاري ، فكان «تصويراً للأمر الواقع» وليس تحديداً للحقيقة الفطرية التي تناقض ذلك الواقع المر ، مما يستوجب اللفت الى وجوب أن يتعهد الانسان ملكاته ومواهبه وقواه النفسية التي تكون في مجموعها «الذات الانسانية» رفعا لشأنها ، واعلاءً لقدرها ، ولا يتم ذلك الا بالانماء والارواء في ضوء توجيهات الكتاب العزيز - اقامة لها ، لتستوي على سمت فطرتها الأصلية ، لا تريم عنها .

هذا ، والحقيقة الواقعية المرة التي أشرنا اليها ، مفادها : أن النفس الانسانية اذا ما مرَدَّتْ على النقائص حتى صار ذلك دأبها ، نتيجة لاهمال الانسان تنمية قواها ، واستثمارها في خيرها هي أولا ، استجابة لما تتطلع اليه من الارتقاء في معراج الكمال والمجد ، أقول : اذا ما مرَدَّتْ النفس الانسانية على المآثم والنقائص ، تمكنت أصولها فيها ، ورسخت ، حتى غدت كأنها مجبولة عليها ، لا على أنها فطرة أصيلة فيها ، كما ظن بعض العلماء خطأ ، أو أن خلال الشر أمر جيلبي نابع من أغوارها ، لتنتقل معبرة عن ذاتها ، بل هو مجرد تشبيه أو مجاز - كما علمت - مما يؤكد أن ليس منشؤها النفس الانسانية على التحقيق ، بل هو انحراف من قبل الانسان نفسه ، بايثاره لتلك النقائص والخلال الذميمة ، أو «المآثم الكبرى» على خليقة الفضيلة ، والمثل العليا ، والقيم الانسانية التي توحى بها ، وتستشرفها «الحاسة الفطرية» في الانسان نفسه ، فضلا عن توجيه الدين ، وما كانت أساليب القرآن العظيم في هذه المعالجة الالرد الانسان الى

أصيل فطرته التي برأه الله عليها ، فكان الانحراف عنها أمراً اختيارياً - كما ترى -
بدليل توجيهه « المسئولية » عن ذلك بصريح النصوص ، ضبطاً للموازين ،
واقامة للمعايير إبتاناً التصرف في الملكات العليا ، والفرائز الدنيا على السواء ،
حتى هذه الأخيرة ، (الفرائز) هي أيضاً خير محض بالنسبة الى فطرة الانسان ومطالبه ،
وحاجاته الفطرية ، وأداء دوره ورسالته في هذا الوجود ، اذا ما كبح جماحها ، ونالت
حظها من التوجيه ، والترشيد ، والتعبير عن ذاتها في طرقها المشروعة ، ولا يتسع
المقام هنا للتفصيل والاستدلال .

٦ - توجيه المسئولية - الدينية والدينية - على النقائص ، وكبائر الاثم ، اهمالا
للملكات ، والفرائز ، يؤكد أصل الخيرية ، في الفطرة الانسانية ، وان هذه المآثم تشكل
عدواناً عليها ، وظلماً لها ، بحرمانها من حقها في بلوغ مستوى المجد والرفعة ،
فالنقائص اذن ليست أمراً نابعاً من ذات الفطرة ، ولا تعبيراً عن مقتضياتها .

أما ، « المسئولية » التي تتجه الى الانسان عن خروجه على مقتضيات
فطرته ، عدواناً عليها ، وحرماناً لها من حقها في الارتقاء الى مستوى الرفعة
والمجد والكمال ، مما لا يسع عاقلاً نكران ذلك ، فتراها في مثل قوله سبحانه : « إن
السمع والبصر والفؤاد ، كلٌ أولئك كان عنه مسؤولاً » (٩٩) وهذه منافذ العلم ،
والمعرفة ، ومسارب التأثيرات الوجدانية الخارجية ، وبواعث الارادة ، ولا ريب
أن اهمالها ، أو تعطيلها أو سوء استعمالها ، يسمح للمؤثرات الخارجية ان تهدم
ما تعتصم به النفس من الفوائل التي تعدو عليها ، أو يجعل من السهل تحكّم
الهوى فيها ، وحينئذ يضعف نفوذ العقل ويتضاءل ، وتتحكم الشهوات التي تورث
العماية عن القيم ، مصداقاً لقوله تعالى : « فاستجبوا للْعَمَى (١٠٠) على الهدى »
ويُمنى العزم أو الارادة بالخَوَرِ ، وهذه أسباب تهافت الذات ، وانهيار
المقومات الجوهرية للشخصية الانسانية ، وهو المعبر عنه في القرآن الكريم ،
بنسيان النفس ، في قوله عز وجل : « نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم » (١٠١) أو
الغفلة المعبر عنها بالعمى ، كما أشرنا .

وعلى هذا ، فان خلال الشر أمراً اختياري ، وليس اضطرارياً بحكم
الفطرة ، بل عدوان عليها عمداً ، - كما بينّا - ولذا جاءت توجيهات القرآن
الكريم لمعالجة هذه الحال ، رداً للانسان الى أصالة فطرته - كما نوهنا - وهو
« الملحظ الدقيق الذي التفت اليه الامام الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة من

قوله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعاً ۝ ٠ ٠ ٠ » تفسيراً يصرف كلمة « خُلِقَ » عن معناها الأصلي ، الى المعنى المجازي ، حيث جعل الاعمان في مقارفة الاثم ، والعكوف على الأخذ بأسباب المعاصي ، في منزلة الأمر المفطور عليه ، للملازمة وعدم الانفكاك ، تشبيهاً ، والدليل النقلي على هذا الصرف والتأويل ، مقابلة القرآن الكريم نفسه « الدين بالفطرة » ، خيريةً ، ونقاءً ، وخلوصاً من أسباب الشر والمفسدة - كما قدمنا - والا لم يكن لهذه المقابلة من معنى تصح به !

ونظير هذا ، قوله تعالى « خُلِقَ الانسانُ من عَجَلٍ » والله يعلم أن الانسان لم يُخلق منه ، ولكن لما كان الانسان عجولاً في عامة أمره ، لا ينفك عن ذلك ، عُدَّ كأنه مخلوق منه ، على سبيل التجوز ، لا الحقيقة ، وهذا التفسير - وهو الحق - يؤصل ما انتهينا اليه من « مبدأ خيرية الفطرة » على ما سيأتي بيانه ، وبذلك يتم التنسيق بين ظواهر الآي المتعارضة ، حيث يقول ما نصه : « ان الانسان لا يثاره الجزع والمنع ، ولتمكنهما منه ، ورسوخهما فيه ، كأنه مجبول عليهما ومطبوع ، وكأن ذلك الشح أو الجزع أمر خلقي ، وضروري ، غير اختياري ، كقوله تعالى : « خُلِقَ الانسان من عجلٍ » (١٠٢) .

هذا ، ولا يلبث الامام الزمخشري أن يقيم الدليل الواقعي - فضلاً عن النقلي - على صحة هذا التأويل : اذ يقول « والدليل عليه ، أنه حين كان - الانسان - في البطن والمهد (١٠٢) ، لم يكن به هلع » (١٠٤) ثم يتبع هذا الدليل بدليل عقلي آخر ، تدعيماً للمعنى الأول ، فيقول : « ولأنه ذَمُّ ، والله لا يَذُمُّ فعله » (١٠٥) ثم يأتي بدليل نقلي ثالث ليؤصِّله ، فيقول « والدليل عليه ، استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم ، وحملوها على المكاره ، وظلفوها عن الشهوات ، لم يكونوا جازعين ، ولا مانعين » (١٠٦) . أي بأصل فطرتهم أو بعد تنقيتها مما شابها من آثار عوامل الفساد الطارئة عليها ، مما عبر عنه الامام الزمخشري « بمجاهدة النفس » وكبح جماح الشهوات التي تستثيرها عوامل الاغواء ، وأسباب الفتنة ، وهنا موطن « الابتلاء » الذي أطلق عليه القرآن الكريم لفظ « الفتنة » في قوله تعالى : « بل هي فتنة » .

ويُستخلص من تقرير الامام الزمخشري لهذه « الحقيقة الواقعية » ،

أقول : يُستخلص مفهوم كلي يندرج فيه كافة النقائص التي وردت في القرآن الكريم - أوصافاً للنفس مبالغاً فيها، لعكوفه عليها - على أنها صدى لعوامل مؤثرة خارجة عن أصالة الفطرة ، أو أثر " لسوء استعمال الانسان لملكاته، ودأبه على ذلك، وعلى ضوء هذا المعنى ، يفسّر مثل قوله تعالى : « إنَّ النفس لأَمَّارة بالسوء » .

هذا ، ومما يؤكد أن « النفس » في استعمال القرآن الكريم ، تأتي تعبيراً عن معان مختلفة ، آيات كثيرة نعرض لبعضها فيما يلي :

٧ - المعاني المختلفة لكلمة « النفس » في استعمال القرآن الكريم ، وفي ضوء تلك المعاني ، يحدد ما يُسبغ عليها من الصفات ، من كونها فطرية ، أو ما دون ذلك ، نتيجة لعوامل خارجية ، أو لطغيان الهوى ، أو لسوء تصرف الانسان في ملكاته ، مما يشكل عدواناً على مقومات فطرته .

نتناول هذه المسألة بإيجاز شديد ، وصولاً الى وجوب التنسيق بين ظواهر النصوص المتعارضة فيما يتعلق بالأوصاف التي أضفاها القرآن الكريم على النفس الانسانية ، ولبيان ذلك نقول :

أ - ان النفس الانسانية وردت في استعمال القرآن الكريم بمعنى « الذات الانسانية » أو « الانسان » تعبيراً بالخاص عن العام ، من مثل قوله تعالى : « كلُّ نفس بما كسبت رهينة » (١٠٧) وهو يساوي قوله تعالى : « كلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رهينٌ » . وهذا بيّن (١٠٨) .

ب - وترد أحياناً ويراد بها « الفرائز » غير المهدبة ، وذلك في مثل قوله : تعالى : « ان النفس لأَمَّارة بالسوء » (١٠٩) من باب اطلاق الأعم، واردة الأخص.

ج - وترد تارة أخرى ويراد بها « الوجدان أو الضمير الانساني الحي » الذي يصدر دائماً عن التأنيب ، والملامة ، على التصرف السيء ، ويلح هذا الضمير في التأنيب حتى يُقْضَ مَضْجَعُ صاحبه ، ومن هنا جاء افراغ التأنيب والملامة ، في صيغة المبالغة، في مثل قوله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (١١٠) وهذه الصفة من خلال الفطرة السليمة بلا مرأ .

د - هذا ، وترد « النفس » بمعنى القلب المطمئن بالايمان ، في مثل قوله سبحانه : « يا أَيُّهَا النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي » (١١١) .

وإذا كانت هذه المعاني للنفس الانسانية ، قد ورد استعمالها فيها ، فقد أضحي من الميسور أن تُنزل كل صفة من صفاتها على المعنى المقصود منها ، وقد اتضح لنا ، أن بعضها فطري ، وبعضها ما دون ذلك ، وعلى هذا يتم التنسيق بينها ، لنخلص الى تقرير الأصل الذي أصلناه ، من أن طبيعة الفطرة الانسانية خير محض ، لا مكان للشر فيها أصلاً .

وعلى هذا ، أصبح جلياً - فيما نحسب - ان الفطرة الانسانية قد خلصت للخير ، طبيعة وجوهرأ ، ومما يؤكد هذا المعنى من السنة أيضاً ، قوله ﷺ : « كُلُّ مولود يُولد على الفطرة » أي خالصة ، طاهرة ، نقية ، كالصفحة البيضاء ، لا يشوبها شيء من التشويه والفساد ، أو هي كالماء العذب الزلال ، نقاء وصفاء وشفافية ، أو كاللبن الصريح ، أو العسل المصفى ، فتعكير الماء - مثلاً - انما يكون أثراً لعامل خارجي عنه مؤثر فيه ، ريحاً ، أو طعماً ، أو لوناً ، وكذلك اللبن والعسل ، فسادهما ليس من ذات فطرتهما ، فليس من الحق العلمي اذن أن يقال - اذا ما تعكر الماء ، أو أسِنَ ، أو فسد اللبن والعسل - أن الفساد أصل في طبيعتها ، أو هكذا خُلِقَت ، لأن هذا ينافي الحق في أصل نشأتها الأولى ، أو الشأن الذي فطرت عليه ابتداءً ، وهو ما أشار اليه الامام الزمخشري بالنسبة الى الانسان اذ يقول : « والدليل عليه ، انه حين كان في البطن ، أو المهد ، لم يكن به هلع » أي منذ نشأته الأولى ، أو خلقه الأول ، قبل طروء العوارض .

وعلى هذا ، يردُّ الامام الزمخشري - كما ترى - كل وصف توصف به النفس الانسانية بصيغة المبالغة - اذا كانت نقيصة تُزرى بصاحبها ، تعنيفاً له ، ومعالجة نفسية على انحرافه - أقول يردُّها الى التشبيه والمجاز ، ولا يأخذ بظاهرها اللغوي المتبادر ، لافادة معنى « التمكن والرسوخ ، والعكوف ، والدأب » لا على أنها أوصاف خلقية فطرية ضرورية لا اختيار فيها ، حتى يقع التناقض بين وصفها بالخيرية ، وبين وصفها بالنقائص أو النقائص ، كلاً على سبيل الحقيقة ، لأن هذا لا يقع عقلاً ولا شرعاً ، بل وينبغي أن يُنزه عنه كلام الله تعالى ، وفعله ، كما يقول الزمخشري ، اذ « النقيضان لا يجتمعان » على حد تعبير أهل المنطق ، بل ثمة جوهر وعارض ، كما بينا .

هذا ، والحاح الامام الزمخشري على التشبيه أو المجاز ، الذي عبر عنه بـ «الكَأَنِّيَّة» - كما رأيت - تقرير لهذا المعنى بصورة أكد ، فكانت على هذا المعنى المجازي ، نقائض عارضة ، لا جوهرية فطرية ، بل تشكل افتئاتاً على الفطرة نفسها ، وتنافي مقتضياتها ، لعوامل قد سبق بيانها ، ونظير هذا :

٨ - وصف الانسان بكونه « ظلوماً جهولاً » - بصيغة المبالغة - في مورد حمله لأمانة التكليف - في قوله تعالى : « وحملها الانسان أنه كان ظلوماً جهولاً » اذ يقصد بهذا الوصف - في الحقيقة - الاخبار أو التصوير لما سيقع فعلاً من معظم البشر عند وجوب أدائها ، وأنفاذ تكاليفها الشاقة ، من النكوص عن الامتثال ، أو التهاون في أمر أدائها ، أو من الانحراف الارادي عمداً ، عن جادة الحق التي رسمتها رسالة التكليف ، تعنيفاً لهم ، بأسباب وصفي الظلم والجهل عليهم ، حتى بلغا بهم شأواً بعيداً ، وازدراءً بهم من شأنه أن يوقظ وعيهم لذواتهم ، وهو ضرب من المعالجة النفسية ، لردهم الى أصل فطرتهم ، مما لا علاقة لهذا - كما ترى - ببيان طبيعة الفطرة وجوهرها أصلاً ، اذ ليست الآية الكريمة مسوقة لهذا الغرض ، على ما تبين لنا ، من مراد الشارع وقصده من سياق الآية الكريمة في مورد هذا الذي بيننا ، هذا ، وقصد تصوير حقيقة الواقع تعنيفاً وتقييحاً - كما أشرنا - لا علاقة له ببيان أو تحديد الفطرة الانسانية طبيعة وجوهاً ، ولم لا يكون هذا التعنيف والازدراء ، على الخروج عن مقتضيات الفطرة ، وتعاليم الدين ؟؟

وتفصيل ذلك : ان الانسان - بمعناه الاستغراقي العام - ظلوم لنفسه ، من قبل أنه يدرك « قيم » هذا التكليف ، ومبادئه السامية ، ومقاصده الرفيعة التي تنهض بقيمة الحياة الانسانية أو بإمكانه ذلك ، ولكنه - على الرغم مما أوتي من علم ، أو امكانية التعلم - يحمل نفسه على مجافاة تلك « القيم » ليهدم مصالحه ، ومصالح الانسانية جمعاء ، مما يؤول بالآخرة الى اهدار هذه القيم ، والمبادئ ، ونقض أسس الحياة الانسانية الفاضلة ، عن عمد ، وتصميم ، فالأناسي بوجه عام اذن ، ظالمون لأنفسهم أشد الظلم ، وأقبحه ، حين يهبطون بها الى دركات المذلة ، والهوان ، ويحرمونها حقها في الارتقاء والتسامي في معراج المجد والرفعة ، ليلبغوا بها المستوى الأعلى الذي قدّر لها أن تبلغه في حدود سعتها وطاقتها - لو استقاموا - ولا يُعقل أن تكون تلك الطاقات قد فطرت على النقيض من تلك القيم ، اذن لاستحال التكليف ، لمنافاة الوسيلة لغايتها ، ومن هنا جاءت الإشارة الى هذا المعنى بقوله سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها » (١٢) وبقوله عز وجل : « لا يكلف الله نفساً

الا وسعها» (١١٣) وما دام ذلك لا يُمكن أن يتم الا عن طريق مقومات وملكات هذه الفطرة من العقل، والنفس، والروح، والفرائز، والاستطاعة، والارادة الحرة التي هي مكونات «الذات الانسانية» أعدّها الله تعالى فطرةً في الأناسي، ليتمكنوا من أداء هذا الواجب الباهظ التكاليف، تكويناً للوسيلة، وتشريعاً للغاية معاً، وعلى غاية من الانسجام والامتزاج المؤتلف بينهما - على ما أسلفنا - أقول مادام الأمر على ما بيّننا، فإن هذا «الوصف» - فضلاً عن كونه تصويراً للواقع المؤلم بما يستوجب من تقبيح وازدراء - هو في الوقت نفسه - معالجة عملية بالغة المدى في المعقولة، والمثالية، على حد سواء، اذ لا يتأتى منطقياً، ولا عملياً، ولا واقعياً، تحقيق غاية ما، اذا لم تكن وسيلتها ملائمة ومتعينة لمقتضياتها، وناجعة لانفاذها، وهو ما ضربه القرآن الكريم مثلاً في «النبوة» التي امتزجت فيها مقتضيات الفطرة البشرية - ظاهراً وباطناً - بمقومات الوحي الالهي، انسجاماً كاملاً ومؤتلفاً - كما أسلفنا - من حيث انها رسالة تكليف، لغاية عمران الكون، واقامة الحق والعدل فيه، حيث جعله الله تعالى انموذجاً مثالياً حياً للأسوة والاقتداء أبد الدهر، وكذلك أصحابه، بل الأمة كلها حين يتركز فيها مناط «الخيرية».

٩ - أسلوب من المعالجة النفسية الفعّالة من خلال اثاره العاطفة الدينية، بما تخلق من حالة تأثيرية غالبة في النفس الانسانية، من شأنها أن تحمل على التأسّي والاقتداء بما ضرب القرآن الكريم للناس مثلاً فريداً خالداً تحققت فيه الانسانية المثلى اعتقاداً وسلوكاً ومواقف حاسمة، في أشد الظروف حرجاً .

هذا، وضرب القرآن الكريم مثلاً آخر لذلك أيضاً «المهاجرين والأنصار» ثناءً على تحقق هذا الامتزاج المؤتلف - في غير الشخصية النبوية - حين جاهدوا أنفسهم، حتى بلغوا ذلك الشأو البعيد في سمو النفس، وقد كانوا جديرين حقاً بالثناء عليهم في محكم الكتاب العزيز، فأضحى قرآناً يُتلى، تمجيداً للأسوة والاقتداء، واقامة للحجة على البشر في امكانية تحقق هذا الامتزاج الكامل، في مثل قوله سبحانه: «والذين تَبَوَّأُوا الدارَ والايمانَ من قبلهم، يحبُّونَ من هاجر اليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُوتُوا، ويؤثِّرونَ على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة» (١١٤) وهذا - دون ريب - ضرب من المعالجة النفسية عن طريق اثاره الوجدان الديني للتأسّي والاقتداء، وهو أسلوب من المعالجة الفعّالة المؤثرة بما تخلق اثاره العاطفة الدينية من حالة تأثيرية غالبة،

في ميدان النفس الانسانية من شأنها أن تحمل صاحبها على الوقوف «المواقف الجدية الحاسمة» في سبيل تحقيق الخير الأسمى ، بحيث لا تقوى الشهوات الرخيصة ، أو المطامع الشخصية المحدودة العارضة ، وسائر الاعتبارات المادية ، لا تقوى على الصد عن المضي في تحقيق ذلك المقصد الجلل الباقي أثره في الضمير الانساني العام أبد الدهر ، اذ الايثار في العطاء قيمة انسانية عظيمة ، ولا سيما مع الحاجة بل والخصاصة ، وهو أمر لا تقوى على الارتقاء الى مستواه الا النفوس الكريمة ، والهمم العالية ذات العزم الصادق ، والغايات الانسانية الرفيعة .

ولا مرأ أن « الايثار المطلق في العطاء » ، من أعظم خلال الفطرة خيرية^{١٠} وسموا حين تستقيم على سَمَتِها الأصيل ، ويسرى في كيانها روح الايمان الحق ، بالله عز وجل ، ولولا هذا الامتزاج المؤتلف ، لما كان ثمة وُسْعٌ أو امكانية للارتقاء الى هذا المستوى المثالي الرفيع ، فكان يحق نموذجاً حياً مضروباً مثلاً للأسوة الخالدة ، ولإقامة الحجة على الأجيال الخالفة بإمكانية تحقق هذا الامتزاج الذي قوامه حقائق الوحي ، ومقومات فطرة التكوين واقعاً وعملاً ، غير مقصور على الذين أُوتوا شرف النبوة ، بل وفي سائر البشر بوجه عام ، والا ما كان لضرب هذا المثل الرائع ، في الايثار المطلق في العطاء ، ونكران الذات ، بالنسبة للأنصار قِبَلِ المهاجرين ، أي معنى يسوِّغه .

١٠- الانسان « جهول » أيضاً ، بالغ الشاؤ في الجهل ، حين لا يدرك ذاته ، وأبعاد رسالته في هذا الوجود ، وقيمة ما حُمِّلَ من أمانة التكليف التي منها تستمد قيمة انسانيته .

هذا ، والانسان « جهول » بالغ الشاؤ في الجهل ، حين لا يدرك أبعاد رسالته ، في هذا الوجود ، وقيمة ما حمل من أمانة تستمد منها قيمة انسانيته ، أو لأنه لا يعلم حقائق ما جاءت به رسالته من « بصائر » على الرغم من أنه كان بإمكانه ادراك ذلك كله ، لقوله عز وجل : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها »^(١١٥) ونولا امكانية ادراكه لحقائقها ، أو أبعادها ، أو اذا كان من المحال أن يتأتى منه ذلك لِمَ سَاغَ أن يوصف بالعمى ، اذ لا يتصور ذلك ، الا ممن شأنه البصر ، فثَبَّتَ قطعاً أن « العماية » انما نشأت باختيار منه ، وذلك بانصرافه عمداً عن اعمال عقله في تفهمها ، وايثاراً منه للعماية على الهدى والرشد ، لقوله سبحانه : « فاستجبوا للعمى على الهدى » أو لأنه يجهل ذاته ،

وحقائق فطرته - لاطلاق لفظ الجهل ، وحذف مُتَعَلِّقَه - وهو مدعو "للعلم بذلك على سبيل الالتزام والحتم ، استجابة لقوله جل شأنه : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » بصراً شاملاً للابصار العلمي ، والمعاينة الحسية ، على السواء ، عملاً بالاطلاق ، ولقوله جل وعلا : « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق » وهي آيات منصوبة في الآفاق ، وقائمة في الأنفس ، تنطوي على « بينات الاقناع » العقلي ، والوجداني ، ترشيداً له في سعيه المستول .

١١- ان من يختص بأن يوصف بالجهل والظلم من دون سائر الكائنات ، عسي أو حري أن يوصف بنقيضيهما من العلم والعدل ، وهما من أصل دعائم الحضارة الانسانية .

هذا ، وايراد هذين الوصفين المبالغ فيهما - من الظلم والجهل - في مورد التكليف وتحمل المسؤولية ، مما ينطوي على التعنيف الشديد ، فيه استنهاض لِهِمَّتِه أيضاً ، لأن يعمل جاهداً على الاتصاف بنقيضيهما من « العلم والعدل » وهما من أهم دعائم الحضارة الانسانية ، ذلك لأن من يوصف بالظلم والجهل ، هو عسي أو حري أن يوصف بالعدل والعلم^(١١٦) ، بل هما من أصل ماتقتضيه الفطرة أيضاً ، لأنها أعدت أعداداً خاصاً لذلك ، بل ما كوَّنت تكويناً خاصاً الالمثل هذه المهام العظمى ، فكان الانسان متمكناً من ذلك بحكم الخلقة ، وفي هذا معالجة لرد الانسان الى الأصل - كما ترى - وتعنيف له على الانحراف ، كما هو ظاهر ، لأن الانحراف إيثار النقيض بمحض الاختيار - على حد تعبير الامام الزمخشري - ومنشأ ذلك ، اضعاف العقل ، وسائر قوى النفس ، مما يورث خوراً في العزم والارادة ، بفعل الانسان نفسه ، وآية ذلك ، أنا لا نجد من الكائنات الحية أو غيرها ، ما يصح أن يوصف بهذين الوصفين أو نقيضيهما ، الا « الانسان » فثبت أن اضعاء هذين الوصفين المناقضين لما أُعدت له الفطرة في الأصل ، أسلوب يقصد به التعنيف القوي له ، أن يؤول به أمره الى هذا المآل من الزرارية ، وضعة الشأن ، وفقدان الوعي للذات الانسانية ، استنهاضاً لِهِمَّتِه أن يؤوب الى الوضع الصحيح الذي فطر عليه ، يؤكد هذا ، قوله عز وجل : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » والمراد سيروا على مقتضى فطرتكم ، وتوجيهات دينكم ، اتقاء لسوء المصير في دنياكم وآخرتكم ، والله يمدكم بعونه وتوفيقه ، وبارشاده إياكم الى مسالك العلم ، كما يعينكم على اقامة العدل ، والقوامة عليه ، والسهر على حراسته والاشراف على تنفيذه ، في مثل قوله سبحانه ق « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط

شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين» (١١٧) بل ترى القرآن الكريم لا يني يوجه النفس الى أن تتضرع اليه سبحانه في الدعاء ، للاستزادة من « العلم » باطلاق ، دون الوقوف عند حد ، لقوله تعالى: «وقل رب زدني علماً» (١١٨) وسيأتي مزيد بيان في هذا الموضوع ، لبيان الأسلوب التي اتخذها القرآن الكريم في تنمية مدارك النفس الانسانية وقواها .

هذا ، ويلاحظ أن التكليف بالنسبة الى العدل ، منحصر في اقامته وانفاذه ، والقوامة عليه ، وحراسته ، لقوله تعالى: « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط » وقوله تعالى : «كونوا قَوَّامِينَ بالقسط » فليس التكليف - كما ترى - بانشاء عدل لم يكن ، بل اقامة عدل قائم في أصول الدين ، ومُسَقَّرٌ في طبيعة الفطرة فرقاناً على وجه التطابق ، وقلنا آنفاً ، ان كلمة « كونوا » أمرٌ تكوين نفسي للاقامة ، والقوامة ، أي وطنوا أنفسكم على ذلك ، كيلا يميل بكم الهوى أن تعدلوا ، أو تنحرف بكم مصلحة ذاتية خاصة موقوتة عاجلة عن الاستجابة لحكم الشرع ، ومنطق العدل ، وصوت الضمير ، كونوا موضوعيين في اقامة العدل ، والاشراف على تنفيذه ، وليس ثمة من منزلة يُتَصَوَّرُ أن يسمو اليها الانسان ، هي أرقى من أن يكون بيده ميزان العدل بين الخلق ، يُقيمه بينهم بنزاهة واخلاص ، ونقاء ضمير ، فانظر الى هذا الشرف العظيم الذي يؤليه الله تعالى هذا الانسان ، حيث أسند اليه هذه المهمة العظمى في هذا الوجود ، ولهذا قلنا ، ان الانسان يظلم نفسه أشد الظلم وأقبحه ، حين يحرمها حقها في الارتقاء والتسامي الى ما تتعشق هي اليه ، بحكم فطرتها ، من بلوغ المستوى الرفيع الذي قدّر لها أن تبلغه ، وهكذا نرى الاسلام يشرع الوسيلة والأسلوب ، كما يحدد الغاية معاً ، وعلى غاية من الانسجام والامتزاج المؤتلف - كما قلنا - اذ لا يتأتى تحقيق غاية ما في هذا الوجود ، اذا لم تكن وسيلتها متعينة لها وملائمة ، وناجعة لانفاذها وتحقيقها ، ثم هو أسلوب ايجابي لتبصير الانسان بطاقاته ، ووظائفها ، ليكون استخدامه لها على نحو يحقق الغاية المتوخاة من أصل خلقها ، وتكوينها ، واعدادها على هذا النظام الدقيق ، والتقويم العجيب .

ولا جرم أن هذا الأسلوب منتج أيضاً في التوعية والتبصير بالمركز الذي

بواه الله تعالى الانسان في هذا الوجود ، كيلا يفكر في الانحدار عنه حين تضل به السبل عن سبيله ، وليدرك الحكمة الالهية البالغة من تسخير وتذليل كل ما خلق الله في السموات والأرض له خاصة من دون غيره من الكائنات والمخلوقات ، لأنها لا يسعها أن تهيمن على هذا الكون وموجوداته ، وما في آفاقه ، ولهذا أبت أن تحمل هذه الرسالة بل أشفقت منها ، اذ لم تُعدّ اعداداً فطرياً خاصاً يُقدرها على ذلك ، وانما أُعدت لتكون مسخرة للانسان ، وهو أسلوب أقل ما يقال فيه ، إنه يبث في روع الانسان أنه لولاه لما خلق هذا الوجود !! ولا ريب أنه أسلوب فذ في توجيه النفس الانسانية ، وتقوية معنوياتها ، واعلاء شأن ذاتها الانسانية والحضارية ، أما كونه فذاً ، فلأنك لا تجد له نظيراً في سائر الشرائع ، فضلاً عن أنه يوقظ في الانسان وعياً ذاتياً، وعياً كونياً، وعياً عقلياً وعلمياً، وعياً وجدانياً ، وعياً روحياً من الايمان بالله جل وعلا ، وهو أصل الكمال المطلق في هذا الوجود .

هذا ، ومما يؤكد روعة هذا الأسلوب ، أنه استطاع أن يوفق بين الوعي الفطري ، والوعي الكوني ، والوعي العقلي والعلمي ، والوعي الروحي ، دون تناقض ، ودون أن يكون تَوَفَّرَ أيٌ منها عائقاً يعترض سبيل تحقيق الآخر .

والله ولي التوفيق .

(للبحث صلة)

الدكتور محمد فتحي الدريني
عميد كلية الشريعة
جامعة دمشق

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - الأنعام/١٤٩ .
- ٢ - الأعراف/١٥٦ .
- ٣ - الأنبياء/١٠٧ .
- ٤ - النحل/٩٠ .
- ٥ - الكهف/١١٠ .
- ٦ - الأحزاب/٢١ .
- ٧ - آل عمران/١١٠ .
- ٨ - الأعراف/٦ .
- ٩ - التوبة/١٢٨ .
- ١٠ - الأنعام/١٢٤ .
- ١١ - القصص/٦٨ .
- ١٢ - لقول تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى » .
- ١٣ و١٤ - لقوله ﷺ : « أدبني ربي ، فاحسن تاديبني » .
- ١٥ - الروم/٣٠ .
- ١٦ - المائدة/٣ .
- ١٧ - معارج القدس - ص ٥٠ وما يليها - للغزالي .
- ١٨ - الأنعام/١٠٤ .
- ١٩ - القلم/٤ .
- ٢٠ - ارشاد الفحول - ص - للشوكاني .
- ٢١ - المرجع السابق - والموافقات للشاطبي - ج ٤ - ص ٥ وما يليها .
- ٢٢ - المرجع السابق .
- ٢٣ - المائدة/٣ .
- ٢٤ - يونس/٦٤ .
- ٢٥ - البقرة/٢٢٩ .
- ٢٦ - النحل/٩٠ .
- ٢٧ - العنكبوت/٩ .
- ٢٨ - المؤمنون/٥ - ٦ .
- ٢٩ - البقرة/١٧ .
- ٣٠ - النمل/٧٩ .
- ٣١ - يونس/٢٣ .
- ٣٢ - الأنبياء/١٨ .
- ٣٣ - الأسراء/١٠٥ .
- ٣٤ - القيامة/١٤ - ١٥ .
- ٣٥ - الروم/٣٠ .
- ٣٦ - البقرة/١٣٨ .
- ٣٧ - هود/٦١ .
- ٣٨ - البقرة/٢٩ .
- ٣٩ - إبراهيم/٧ .
- ٤٠ - النساء/٢٧ .
- ٤١ - الأحزاب/٣٨ .
- ٤٢ - فاطر/٤٣ .
- ٤٣ - النساء/٢٦ .
- ٤٤ - المؤمنون/٥١ .
- ٤٥ - الأنعام/١٥٠ .
- ٤٦ - البقرة/٤٥ .
- ٤٧ - المنار - ج ٢ - ص ١٩ - للشيخ رشيد رضا - عن الامام الشيخ محمد عبده .
- ٤٨ - لقوله تعالى : « ولو شاء الله لأعنتكم » لكنه سبحانه لم يشأ .
- ٤٩ - لقوله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .
- ٥٠ - لقوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق » سؤال يراد به الاستنكار !
- ٥١ - العصر/١ - ٣ .
- ٥٢ - الأسراء/٨٢ .
- ٥٣ - العنكبوت/١٩ .
- ٥٤ - الأعراف/١٥٧ .
- ٥٥ - الأعراف/٣٢ .
- ٥٦ - الروم/٤١ .
- ٥٧ - المائدة/٥٠ .
- ٥٨ - الأسراء/٩ .
- ٦٠ - الأعراف/٥٦ .
- ٥٤ - الأعراف/١٥٧ .
- ٥٥ - الأعراف/٣٢ .
- ٥٦ - الروم/٤١ .
- ٥٧ - المائدة/٥٠ .
- ٥٨ - الأسراء/٩ .
- ٥٩ - الأنعام/١٥٣ .
- ٦٠ - الأعراف/٥٦ .
- ٦١ - البقرة/٦٠ .
- ٦٢ - آل عمران/١١٠ .
- ٦٣ - متفق عليه .
- ٦٤ - آل عمران/١١٠ .
- ٦٥ - الروم/٣٠ .
- ٦٦ - الروم/٣٠ .



- ٩١- العنكبوت/٦٩ •
- ٩٢- الأنعام/١٦٢ - ١٦٣ •
- ٩٣- الأنعام/١٤٩ •
- ٩٤- الأعراف/١٥٦ •
- ٩٥- الأنبياء/١٠٧ •
- ٩٦- النساء/١٣٥ •
- ٩٧- يوسف/٥٣ •
- ٩٨- المعارج/١٩ - ٢٢ •
- ٩٩- الاسراء/٣٦ •
- ١٠٠- فصلت/١٧ •
- ١٠١- العنكبوت/١٩ •
- ١٠٢- الأنبياء/٣٧ •
- ١٠٣- الكشاف - ج ٤ - تفسير سورة المعارج - آية ١٩ - ٢٢ •
- ١٠٤- المرجع السابق •
- ١٠٥- المرجع السابق •
- ١٠٦- المرجع السابق •
- ١٠٧- المدثر/٣٨ •
- ١٠٨- الطور/٤١ •
- ١٠٩- يوسف/٥٣ •
- ١١٠- القيامة/٢ •
- ١١١- الفجر/٢٧ - ٣٠ •
- ١١٢- الروم/٣٠ •
- ١١٣- البقرة/٢٨٦ •
- ١١٤- العنكبوت/٩ •
- ١١٥- الأنعام/١٠٤ •
- ١١٦- الانسان في القرآن - للأستاذ العقاد - ص ٣٠ •
- ١١٧- النساء/١٣٥ •
- ١١٨- طه/١١٤ •

- ٦٧- الاسراء/٩ •
- ٦٨- الشمس/٩ •
- ٦٩- الشمس/٨ •
- ٧٠- البلد/١٠ •
- ٧١- المعارج/١٩ - ٢٢ •
- ٧٢- الزمر/٤٩ •
- ٧٣- الزمر/٥١ •
- ٧٤- الزمر/٤٩ •
- ٧٥- يونس/١٢ •
- ٧٦- العاديات/
- ٧٧- الزمر/٤٩ •
- ٧٨- احياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٢٨ والاقتصاد في الاعتقاد ومعارج القدس ص ٥٠ ومايليها- للغزالي •
- ٧٩- المقدمة - ١٠٦ •

٨٠- القانون والسياسة - امانويل كنت - عبد الرحمن بدوي - ص ٩٩ - خصائص التشريع الاسلامي في السياسة والحكم - ص ١١١ - الدكتور محمد فتحي الدريني •

- ٨١- المرجع السابق •
- ٨٢- المرجع السابق •
- ٨٣- الاسراء/٨٦ •
- ٨٤- العنكبوت/٢٩ •
- ٨٥- الأنفال/٦٣ •
- ٨٦- الأنفال/٤٦ •
- ٨٧- آل عمران/١١٠ •
- ٨٨- الأنفال/٦٣ •
- ٨٩- آل عمران/١٠٣ •
- ٩٠- الأنفال/٤٦ •



المراجع : □

- ٧ - القانون والسياسة الدكتور عبدالرحمن بدوي
- ٨ - الانسان في القرآن الأستاذ عباس محمود العقاد
- ٩ - خصائص التشريع الاسلامي في السياسة والحكم الدكتور محمد فتحي الدريني
- ١٠- المنار الامام الشيخ محمد عبده

المصادر : □

- ١ - الموافقات في أصول الشريعة للامام الشاطبي
- ٢ - احياء علوم الدين للامام الغزالي
- ٣ - معارج القدس للامام الغزالي
- ٤- الاقتصاد في الاعتقاد للامام الغزالي
- ٥ - الكشاف للامام الزمخشري
- ٦ - المقدمة ابن خلدون

أساليب القرآن الكريم

في
معالجة النفس الإنسانية

٢

د. محمد فتحي الدريني

منهج البحث مفصلاً وموجهاً :

الإنسان - في ضوء الحكمة القرآنية - يحيا للأمل والعمل
وهذا هو الشأن في كل حي سوي .

أ - ينتاب النفس الإنسانية ، مزيجٌ من مطامح الأمل ، وبواعث الخشية ، أو يتعاورها أسباب الرجاء والخوف ، وآيات القرآن الكريم - كما يقول الامام الشاطبي - قد نزلت على هذا الوزن ، دائرة بينهما ، تربية وتوجيهاً ، لا اكراهاً . . وتحكماً ، وذلك توقيراً للمعنى الخلقي القائم على عنصر الحرية والاختيار .

ب - الحكمة الالهية في جعل القرآن الكريم ، الايمان بالله تعالى ، مصدراً للخشية والرجاء معاً ، أو شرطاً فيهما ، دون مجرد الغريزة العمياء ، المستقرة في أصل الجبلّة الأدمية .

ج - القرآن الكريم ، اذ يغري الانسان ، بل يفرض عليه التفكير اللانهائي في الآفاق ، وفي الأنفس ، وفي خلق السموات والأرض ، يغريه - في الوقت نفسه - بالعمل الصالح ، لا بمطلق العمل ، ارتقاءً بنوعيته ، وتوجيهاً الى اتقانه وجودته ، بل والابداع فيه : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » دون بغض لحقه في المثوبة عليه ، ولو مثقال ذرة .

د - قضى القرآن الكريم - من خلال أساليبه في معالجة النفس الإنسانية - على كافة منازع الجبلّة من الخوف أو الجبن ، بعقائده الايجابية ، وتكاليفه الملزمة ، كما قضى على بواعث التردد ، أو التقهقر ، أو التّوَلَّى من الزحف في المعارك الطاحنة ، بما يبيت في النفس المؤمنة من طاقات روحية هائلة ، هي كفيّلة بحمله على التفاني والاستشهاد ، في

سبيل قيّمه ، ومثله ، ووطنه !! مؤمنابان « النصر » من عند الله ، وأن روحه ،
جسر تعبر عليه الأجيال القادمة الى ادراك النصر ، اذا عز عليه ادراكه في حياته •

هـ - وضع القرآن الكريم « العقائد » التي تستند في حقيقتها الى قوة البرهان ، ووضعها
ضمانات عملية لأداء التكاليف ، والنهوض بأعباء اقامة الحياة الانسانية المثلى التي
قوامها ما تقتضيه حقائق الفطرة الانسانية نفسها ، من الحق ، والعدل ، والمساواة ،
والحرية ، والكرامة ، والعصمة في النفس والمال والعرض ، كما اتخذ أسلوب
« الترجية والترهيب » أو « البشارة والندارة » معالجة للنفس الانسانية ،
واستثماراً لطاقتها •

و - أثبت استقرار أي القرآن الكريم - فيما يتعلق بموضوعنا - أن الرجاء الايجابي العامل ،
والنابع من عقيدة التوحيد الخالص - مشوباً بالخشية والمهابة منه - سبحانه -
واستشعار عظمته ، ينبغي أن يقوم على أساس من « العمل الصالح » أي المثمر البناء ،
ظهيراً للرجاء الحق في مفهومه الحقيقي في القرآن الكريم ، كشرط له ، أو شطر منه •

ز - أقام القرآن الكريم الرجاء أو الأمل ، على أساس من العمل الجاد المثمر البناء ،
كيلا يغدو الرجاء أو الأمل خواءً كالأمانى الكواذب ، أو « ملهاة » تصرف عن تعقّل
سنن الله في هذا الوجود •

ح - ليس ثمة من رجاء - يرتجى فيستجاب بمقتضى المنطق القرآني - اذا كان مبتوراً
عن أساسه ، ومسوّغ الاستجابة له ، من العمل الجاد المتقن ، والا كان مفرغاً من
محتواه القرآني •

ط - الواقع - أنه لا يستسيغ عقل ، ولا يستمرى ضمير حيّ ، التخلي عن المثل العليا
في الحياة الانسانية التي تتعشقها النفس الانسانية بفطرتها ، وترنو اليها ، لتقترب
منها ، ويعتبر القرآن الكريم اطراح القيم الرفيعة ، انسلاخاً عن لوازم الفطرة ،
وتعتبره « السنة » الصحيحة الثابتة ، هو العجز والحمق بعينه : « الكيس من دان نفسه ،
وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » •

ي - يعكس لنا مضمون كل من الرجاء ، والتوكل الحق ، والضراعة « المواقف » الحيوية
الحاسمة « للرغيل الأول ، مما يجلي لنا ، تصورهم لحقائق الحياة الانسانية في مفهومها
القرآني ، وما تستلزم من تفان ، وتضحيات جسام في سبيل المبدأ الذي آمنوا به ، مناطاً
لعزتهم ، وحریتهم ، وسيادتهم في أوطانهم ، بل وسعيهم لتحقيق المصلحة الانسانية العليا .

ك - اقتران الرجاء - بمفهومه القرآني - بالعمل والعطاء ، اقتران الشرط بالجزاء ، يدل
على أن الانسان - في ضوء الحكمة القرآنية - انما يحيا للأمل والعمل ، أو بالأحرى
للرجاء الايجابي العامل ، فضلاً عن أن هذا الاقتران يدل على أنه سنّة من سنن
الله في الوجود •

ل - معاني النبوة ، تؤكد مفاهيم الكتاب العزيز ، في هذا الصدد ، حيث تلفت الانسان الى أن « الايمان » هو مصدر « الكياسة والفتنة » لا مصدر الخدر ، والوهم ، وأحلام المنسى !

م - مقام اليأس، يعالجه القرآن الكريم بأسلوب التبشير والترجية ، احياء للأمل في غفران الذنوب جميعاً ، شريطة الانابة الصادقة النصوح اليه تعالى ، تجنبياً للنفس الانسانية من التردى في وهده ، ولتحملها على عدم الاسترسال في قنوطها ، ولينجي من موات هذه النفس آخر الأمر ، ما يعينها على استئناف حياتها الأملية العاملة من جديد .

ن - الترجية والتخويف - في مفاد النص القرآني - يشندان في مواطن اليأس ، ومظانته ، ومُحتملات وقوعه ، ولكن الترجية - في مثل هذا المقام - أغلب - استجابة لمقتضى الحال .

ص - القرآن الكريم ، يعالج النفس الانسانية بهذا الأسلوب التربوي ، من الترجية والتخويف ، تاديباً ، وفقاً لما جلبت عليه الفطرة الانسانية نفسها من الزجاء المشوب بالخشية ، ليحفظ عليها معدنها الأصيل ، ويدراً عنها غوائل التدمير العارضة ، ويُعدها لمواجهة الصعاب ، ومقارعة الأهوال ، وتحمل مشاق التكاليف ، وخوض غمار الحروب ، عند الاقتضاء ، دفاعاً عن المبادئ التي آمنت بها ، وتفدية للأوطان ، والأموال والاعراض ، في كافة المواقف الحيوية ايجاباً ، وسلباً .

ع - القرآن الكريم يسلك سبيلاً قاصداً وسطاً ، تحقيقاً للتوازن النفسي ، ابان معالجته لحالات النفس الانسانية ، بشاراً ونذارة .

ف - اتزان الأسلوب القرآني النفسي التربوي - ترجية وتخويفاً وتغليفاً لأحدهما على الآخر ، حسبما يقتضيه المقام - يبدو (الاتزان) في أن الرهب ، لا يذهب الرغب ، كما أن الرجاء ليس بمذهب من خشية الله تعالى ، ومهابته شيئاً .

ص - يؤكد القرآن الكريم معنى « الترجية » و « الاطماع » يؤكد بالعتاء المطلق المعبر عن القيم الانسانية ، مضموناً وهدفاً ، كمنطلقات أساسية له ، وهي ما أطلق عليه القرآن الكريم « التصديق بالحسنى » أي الايمان بالمثل العليا ، والفضائل الخلقية ، والا كان عطاء مجرداً يرتبط بالماديات العاجلة ، وكل عطاء ينحصر في المادة ، أو يدور في فلكها ، ويتغيها مقصداً أسمى ، ليس وراءه من غاية ، لا يرقى بالضرورة ، الى « معنى العطاء الانساني » في دوافعه وغاياته ، ولا يعبر بداهة ، عن قيمة من القيم التي ينبغي أن يتجه مطلب المادة الى تحقيقها معها ، ارتقاءً بالانسان الفرد والمجتمع الى مستوى كما لاته ، ولن يضر مجتمعاً أو أمة أن تعيش مادياً ، أو حضارة مادية خالصة ، ولكنها لا تملك القدرة أن تعيش « انسانياً » الا بالمثل

العليا ، والقيم الحضارية التي من شأنها أن تحفظ « التوازن النفسي » بين مطالب
الجسد المادية ، ومطامح النفس والروح القيمية ، والا كان الاخلاص الى الأرض ،
واتباع الهوى ، واختلال التوازن بالضرورة .

ق - تأصيل « جهة التعاون » في القرآن الكريم ، يؤكد هذا السّنن الالهي في العطاء المطلق.

ت - الايثار المطلق - في المفهوم القرآني - ليس مجرد عطاء مادي ، وانما هو - باستمداده
بواعثه ، وغاياته من معين « التقوى ، والتصديق بحقائق الفضائل - سجية روحية ،
نفسية ، تتهاوى أمامها ، كافة الاعتبارات المادية عند التعارض .

خ - فرق بين مطلق العطاء ، والعطاء المطلق ، في المفهوم القرآني .

ذ - ان لشرط صدق الاعتقاد بالفضائل والحسنات ، والايمان بالمثل والمبادئ
وعنصر المعقولية في التشريع - مما اتخذته القرآن الكريم أسلوباً في معالجة النفس الانسانية -
أثراً فعّالاً في تنمية الطاقات والملكات ، وتوجيهها الى « تخيّر » نوعية العمل
- ببواعثه ، ومضمونه ، ومتعلقاته - صلاحاً ، واتقاناً ، وجودة ، بل وابداعاً
وابتكاراً ، دون الاجتزاء بأصل العمل الصالح فحسب .



أسباب القرآن الكريم في معالجة النفس لله نسلية

الإنسان - في ضوء الحكمة القرآنية - يحيا للأمل والعمل
وهذا هو الشأن في كل حي سوي .

أ - ينتاب النفس الانسانية ، مزيج من مطامح الأمل ، وبواعث الخشية ، أو يتعاورها
أسباب الرجاء والخوف ، وآيات القرآن الكريم - كما يقول الامام الشاطبي - قد نزلت
على هذا الوزن ، دائرة بينهما ، تربية وتوجيها ، لا اكراها . . . وتحكما ، وذلك
توفيرا للمعنى الخلقي القائم على عنصر الحرية والاختيار .

يرشد الى هذا ، أن القرآن الكريم ، في معرض بيانه لغاية «الرسالة» الالهية ،
أشار الى أنه قد اتخذ أسلوباً قوامه «البشارة والندارة»^(٢) يعالج به النفس
الانسانية ، لأنه يرى - وبحق - أن ليس ثمة ما يشد من أزرها ، في أداء التكليف ،
أو يضعها على جادة الاستقامة ، ويحقق ذاتيتها ، الا هذا المنهج العملي الذي يجمع
بين الأمل المرجو العامل ، والحذر المتخوف ، كيلا ينحصر التوجيه في حيّز النصيح
والارشاد ، تجد هذا مبثوثاً في القرآن الكريم على سبيل الاجمال والتفصيل
- مما لا يتسع المجال لاستقراءه - تساوقاً مع نوازع الفطرة الانسانية ذاتها ، كما
أشرنا ، بما هي في أصلها أملة مترقبة حذرة ، فكان الأمل والعمل - في منطق
القرآن الكريم - هو الشأن في كل حي سوي .

ب - الحكمة الالهية في جعل القرآن الكريم ، الايمان بالله تعالى ، مصدراً للخشية والرجاء
معاً ، أو شرطاً فيهما ، دون مجرد الغريزة العمياء ، المستقرة في أصل الجبلة الادمية .

ليس شيء من الخشية لله تعالى ، أو الوقار والمهابة لمقام الألوهية بالذي يفقد
الانسان الارادة الحرة ، أو يورثه الجبن والخور والسلبية ، ذلك لأن «العقيدة

الاسلامية» بايجابيتها ، وجعلها «الايمان» به سبحانه ، أصلاً لعنصري الرجاء والخشية ، أقول : ان العقيدة الاسلامية - بما هي بهذه المثابة من الايجابية - ترسي فيصل التفرقة والتمييز عن «مثليهما»^(٣) مما هو أثر لمحض الغريزة مجردةً عريّةً عن آثار التبصير والتوعية والتوجيه الوجهة التي تتفق وغايات الرسالة ، من اعلاء شأن الذات ، بدليل جعل كل ما في السموات والأرض والآفاق من الكائنات والممكنات ، مسخراً للانسان ، ليدرك أبعاده الذاتية والكونية والروحية ، ومن خلال بُعد الروحي ، بث في روعه ، أنه «الهدف المقصود» من انزال هذه الرسالة ، كما أنه - في الوقت عينه - «الوسيلة» لتحقيقها ، لذا ، ترى الاسلام يغريه بالمثّل العليا ، بما يرتب من عظيم الجزاء والثوبة ، ويُنذره - في الوقت نفسه - من التحرّف عن معدلة الطريق ، وفي الحالين كليهما - البشارة والندارة - يشعره بقابليته للكمال ، والا فلماذا كان الانسان هو الكائن الحي الوحيد الذي أنزل من أجله الوحي الالهي عن طريق القادة الرسل ؟؟؟

ج - القرآن الكريم ، اذ يغري الانسان ، بل يفرض عليه التفكير اللانهائي في الآفاق ، وفي الأنفس ، وفي خلق السموات والأرض ، يغريه - في الوقت نفسه - بالعمل الصالح ، لا بمطلق العمل ، ارتقاءً بنوعيته ، وتوجيهاً الى اتقانه وجودته ، بل والابداع فيه : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » دون بخس لحقه في المثوبة عليه ، ولو مثقال ذرة •

هذا ، والقرآن اذ يغري الانسان ، بل يفرض عليه ، التفكير اللانهائي في الآفاق ، وفي الأنفس ، وفي خلق السموات والأرض ، يغريه أيضاً بالعمل الصالح ، ارتقاءً بنوعيته ، وتوجيهاً الى اتقانه وجودته ، والابداع فيه ، لقوله سبحانه : «قل أنظروا ماذا في السموات والأرض» وباطلاق النظر في الآية الكريمة ، يشمل الحسي المشاهد ، كما يشمل النظر العقلي المجرد ، وهذا من بلاغة البيان ، ولأنهما كليهما من مصادر تبيين حقائق العلم ، وأسرار الوجود ، وأصول الحضارة الانسانية ، لقوله عز وجل : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا »^(٤) • ولقوله جل شأنه : وأنّ ليس للانسان الا ما سعى ، وأنّ سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى^(٥) دنيا وأخرى ، وقوله ﷺ : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ولقوله جل شأنه :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره »^(٦) وقوله عز وجل : « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أجورهم ، وهم لا يظلمون » .

هذا ، والمثل العليا التي أغراه بالارتقاء اليها ، هي مبادئ ومفاهيم معيارية ، تفتقر الى تحقيق وتجسيم ، لتصبح أوضاعاً قائمة في المجتمع الانساني ، وهذا يتطلب منه جهوداً مضنية ، بل تضحيات جساماً ، للاقترب منها ، وجهاداً مستميتاً واصباً لحمايتها ، أن يبغى عليها أو يُجحف بحققها ، أو يُصد عن سبيلها ، وبدهي أن هذه المهام تتنافى مع الجبن والخور الفرزي ، والسلبية ، بما تقضي الخشية منه سبحانه - ثمرة للايمان الحق - على منازع الجبن في الانسان جملة : قال تعالى : « فليُقاتل في سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يُقاتل في سبيل الله ، فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ ، فسوف نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » والاعراء والترغيب كما هو ماثل في ترتيب الأجر العظيم على بذل النفس والمال ، هو أيضاً متحقق في مثل قوله تعالى : « وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان »^(٧) يُغْرِيهِ بالاستماتة ، تحريراً للشعوب المستضعفة في الأرض ، المغلوبة على أمرها ، ولو لم تكن ممن تدين بالاسلام ، وهذا من المثل الانسانية العليا الرائعة حقاً !!

وتأسيساً على هذا ، قضى القرآن العظيم على كافة منازع الخور الفرزي ، والحدَر النفسي ، وغدت قوله أن : « (الدين أفيون الشعوب) » باطلاق ، قوله تجنُّ و بهتان بالنسبة الى دين الاسلام ، « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً »^(٨) .

د - قضى القرآن الكريم - من خلال أساليبه في معالجة النفس الانسانية - على كافة منازع الجبلَّة من الخوف أو الجبن ، بعقائده الايجابية ، وتكاليفه الملزمة ، كما قضى على بواعث التردد ، أو التقهقر ، أو التوَلَّى من الزحف في المعارك الطاحنة ، بما يبيت في النفس المؤمنة من طاقات روحية هائلة ، هي كفيْلَة بحمله على التفاني والاستشهاد ، في سبيل قِيَمِهِ ، ومثله ، ووطنه !! مؤمناً بأن « النصر » من عند الله ، وأن روحه ، جسر تعبر عليه الأجيال القادمة الى ادراك النصر ، اذا عز عليه ادراكه في حياته .

هذا ، واذا قضى القرآن الكريم على كافة منازع الخوف أو الجبن ، بالعقيدة الصحيحة ، والتكليف الملزم ، فلأن يقضي على بواعث التردد ، أو التقهقر ، أو

التولي ، من باب أولى ، بما يورث القرآن الكريم إنسانه - عقيدة وتشريعاً - من قوى معنوية ، وطاقات روحية هائلة لا حدود لها ، وهذا مناط « ايجابية » العقيدة الاسلامية - خصيصة من أصل خصائصها - ووقائع التاريخ خير شاهد على ذلك ، مصداقاً لقوله عز وجل : «لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» ، إن «الله لقوي» عزيز» (٩) ونصر الله ، انما يكون في تنفيذ شرائعه ، وقيمه ، ومثله العليا الخالدة . وقوله عز وجل : «والذين جاهدوا فينا ، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (١٠) وقوله عز شأنه : «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ ، وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» (١١) وقوله تعالى في اناطة ذلك بحتمية اللقاء المرجو : «فمن كان يرجو لقاءَ ربه ، فليعملْ عملاً صالحاً ، ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً» (١٢) فالرجاء - كماترى - مقرون بالعمل الصالح بشتى صوره - فكرياً ووجدانياً ومادياً - نابعاً من عقيدة التوحيد الخالص ، فكان رجاءً ايجابياً عاملاً ، مبعثه العقيدة الصحيحة ، فلا سلبية ، ولا أمانى «كواذب ، ولا خدر ، ولا وهم .

• حقيقة « الرجاء » في المفهوم القرآني ، وميزته في علاج النفس الانسانية •

هذا ، واذا لاحظنا أن مفهوم « الرجاء » في الآية الكريمة جاء مزيجاً من « الأمل والرغبة » لمقام الألوهية عند اللقاء ، أدركنا ما لهذا الأسلوب التربوي من ميزة فريدة في صدد علاجه للنفس الانسانية ، وتوجيهها الوجهة التي تتفق مع طبيعتها ، بما يساورها فطرةً ، من الرجاء الآمل ، والحدز المترقب ، كما نوهنا ، تقوية لمعنوياتها ، وإثراءً لمطامعها الخيرة ، واعانة لها على أداء رسالتها وتكاليفها ، بما يصلح لها من أمر دينها ودنياها ، ويكفل لها حسن المصير في الأولى والآخرة .

وتفسير ذلك ، أن « للعقيدة » دوراً هاماً وفعالاً في مجال النفس الانسانية لاسبيل الى انكاره أو تجاهله ، يقصر عن القيام به ، « العلم » أو « الضمير الانساني المجرد » ذلك ، لأن العقيدة الحقة من شأنها أن تولد في النفس الانسانية حالة تأثيرية غالبة تجعل الانسان على أداء ما تتطلبه موجهاتها ، وتعاليمها ، طوعاً ، والحرص على عدم الاخلال بها أو التهاون في أمرها ، باخلاص وتجرد ، حتى اذا انضاف الى ذلك « معقولية » تكاليف هذا التشريع الخالد - وهي القيم الموضوعية العليا التي

لا تقبل التجزئة زماناً ، ومكاناً ، وأناسيَّ ، فقد وجد الأساس المنطقي والعقدي المكين للالتزام ، مما لا يُتصور معه تردد ، أو تقاعس أو هبوط ، أو انسلاخ عن القيم الرفيعة ، وانما يُتصور ذلك كله من الهبوط والتدني المُعبّر عنه في القرآن الكريم ، بالاخلاق الى الأرض ، عند افتقاده عنصر الاعتقاد ، وتحكّم الهوى ، وهيمنة المادة والشهوة ، مصداقاً لقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأَتْبَعَهُ الشيطانُ » ، فكان من الغاوين ، ولو شِئْنَا ، لرفعناه بها ، ولكنه أخذ الى الأرض ، واتبع هواه » (١٣) .

هـ - وضع القرآن الكريم « العقائد » التي تستند في حقيقتها الى قوة البرهان ، وضَعَهَا ضمانات عملية لأداء التكليف ، والنهوض بأعباء اقامة الحياة الانسانية المثلى التي قوامها ما تقتضيه حقائق الفطرة الانسانية نفسها ، من الحق ، والعدل ، والمساواة ، والحرية ، والكرامة ، والعصمة في النفس والمال والعرض ، كما اتخذ أسلوب « الترجية ، والترهيب » أو « البشارة والنذارة » معالجة للنفس الانسانية ، واستثماراً لطاقتها .

وهكذا ترى أن القرآن الكريم اذ وضع « العقيدة » ضماناً لأداء التكليف ، وضع أيضاً أسلوب الترجية ، والترهيب ، توجيهاً واستغلالاً لما فطرت عليه النفس الانسانية نفسها من ملكات وغرائز ، من الرجاء الطامح ، والتفاؤل المشرق ، والحدَر المتخوف ، أقول توجيهاً واستثماراً ، لا اجتثاثاً واستئصالاً ، ولا مصادرةً ولا كَبْتاً .

أما « الغايات » التي رسمها القرآن الكريم للفرد ، والمجتمع ، وطلب اليهما السعي الحثيث نحوها ، طوال الحياة ، سعياً مسئولاً ، فانها تُستشف من آيات الكتاب العزيز ، وتعاليم السنّة المطهرة ، وتمثّل - في واقع الأمر - « الملة » أو « الدين » كله وهي - في الوقت نفسه - معايير للسلوك ، على أساسها يكون التقويم والمشروعية ، وتنهض المسؤولية الفردية والجماعية على السواء ، بما أوجب القرآن الكريم من التحرك نحوها ، وتحقيقها عن طواعية واقتناع ، ليتم الابتلاء والجزاء عدلاً ، وهذا أبين تفسير لايجابية الاسلام ، عقيدة وتشريعاً ، مما لا نرى أحداً يملك فيه جدلاً !

أما أسلوب القرآن الكريم ، كمنهج تربوي عملي في الترجية والترهيب ، فقد أشار اليه الامام الشاطبي بقوله : « اذا ورد في القرآن الترغيب ، قارنه الترهيب ،

في لواحقه ، أو سوابقه ، أو قرائنه ، وبالعكس ، وكذلك الترجية مع التخويف» (١٤) .

على أن « الخشية » اذا انبعثت من ذات الجبلّة الآدمية ، مظهراً للفريزة المجردة ، لا من أصل العقيدة وتوجيهها ، عرية عن الرجاء في الله تعالى ، وحسن الظن به ، كانت حينئذ جنباً وخوراً خالصاً من شأنه أن يورث المذلة والمهانة ، مما لا يقوى الانسان معه على مغالبة الشدائد ، ومقارعة الأهوال .

وأيضاً قد تنتفي « الخشية » الفرزيّة بتغلب القوة التدميرية الوحشية الرابضة في أعماق النفس الانسانية ، فيكون الطغيان ، والعتوّ ، والافساد الكبير في الأرض ، والاجترأ على الحرمات ، وتسافك الدماء ، وتخريب معالم الحضارة ، والى ذلك الإشارة بقوله عز وجل : « أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء » (١٥) . وقوله تعالى : « واذا تَوَلَّيْ ، سعى في الأرض ، ليُفْسِدَ فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » (١٦) وذلك في حالة انتفاء أصل الاعتقاد الحق بالله سبحانه ، وما يتفرع عنه من التعاليم الموجهة ، والتكاليف الملزمة .

وعلى هذا ، فالخشية - عريّة عن السند الروحي - مجرد جُبْن وخور ومذلة ، واستخذاء ، حتى اذا انتفت ، كان الطغيان والظلم والافساد في الأرض ، وكلاهما شر وفساد وبغي ، لانتفاء أصل الاعتقاد الحق ، فكانت العقيدة بايجابيتها وتوجيهها - كما ترى - ضرورة حيوية لتدبير الحياة الانسانية على وجه هذه الأرض ، بما تنأى بالانسان عن مواطن الظلم والطغيان والافساد ، أو مواقع الهوان والمذلة ، نتيجة للخور وهبوط المعنويات ، ذلك ، لأن من يخشى الله تعالى حقاً ، لا يخشى أحداً في الوجود كائناً مَنْ كان ، يرشد الى هذا ، قوله تعالى : « الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً الا الله » (١٧) وهذه هي الطاقة الروحية الهائلة التي تعظم بها الشخصية الروحية الانسانية ، بالرهبة من مقام الألوهية ، وبالرجاء فيما عند الله سبحانه ، لقوله جل شأنه : « ما عندكم ينفذ » ، وما عند الله باق » (١٨) ولقوله عز وجل : « والباقيات الصالحات خير » عند ربك ثواباً ، وخير أملاً » (١٩) .

وهذا توجيه وتوجيه لما هو أجدى على الإنسانية في أولها وأخراها .

فتلخص : ان النفس الانسانية ، ينتابها بفطرتها ، مزيج من عوامل الأمل والخشية ، وأن آيات القرآن الكريم - على التحقيق - قد نزلت على وفقها ، تربية ، وتوجيهاً - لا تحكماً ، ولا اكراهاً - ليكون أداء التكليف عن حرية واختيار ، تنمية للعنصر الخلقي ، والارادة الصلبة الخيرة التي لا تعرف الخور ، أو التردد ، وتمكيناً للانسان من الوفاء بالتزامات « الرسالة » التي حُمِّلها ، بما مُنح من حرية الاختيار ، تحقيقاً لذاته ، بالتعبير عن مواهبه وملكاته الفطرية ، وذلك بتأدية وظائفها التي خلقت من أجلها ، وقد اتخذ القرآن الكريم أسلوب « البشارة والندارة » ومزج بينهما دون فصل ، وان كان أحدهما يزداد شدة دون الآخر ، تبعاً لما يقتضيه المقام ، أو الحال ، وهذا من صميم البلاغة التي نراها تتصل اتصالاً وثيقاً بالحالات النفسية ، ومقتضياتها ، على ما سيأتي القول فيه ، وهذا المزج بينهما في هذا الأسلوب القرآني ، يبدو واضحاً ، حيث ترى « الترجية » أو « الاطماع » اذا ورد في القرآن الكريم ، كان « التهيب » اما في سوابقه ، أو قرائنه ، أو لواحقه - على حد تعبير الامام الشاطبي كما نوهنا - متخذاً من ذلك ، منهجاً تربوياً عملياً - لتربية النفس الانسانية ، كيلا يكون ايراد معاني الترجية والتهيب هذه ، مجرد نصائح تُسدى ، وليكون ذلك معاوناً للانسان نفسه على المبادرة الى « تحقيق ذاته » يتحمل تبعات التكليف ، وأدائها ، والاستقامة على سواء الجادة ، متوازناً عاملاً آملاً ، تجد هذا مبثوثاً في القرآن الكريم على سبيل الاجمال والتفصيل .

وأشرت كذلك الى أن الايمان بالله تعالى ، أو « عقيدة التوحيد الخالص » هو مصدر الخشية والرجاء ، كليهما ، لا أصل الغريزة السليقية العمياء المتأصلة في أغوار الجبلّة الآدمية ، توجيهاً لها ، واستثماراً لطاقتها ، لا تبديلاً ، ولا استئصالاً ، اذ لا تبديل لخلق الله ، بل ليس في الوسع ذلك ، ولا ريب أن التوجيه والتنميّة ، غير الاعتقال أو الاستئصال !! إذ الانسان هو الانسان ملكاتٍ وغرائز . وتأسيساً على هذا التلخيص : فان التوجيه العقائدي ، وما يستند اليه من الآداب والتشريعات الملزمة ، فضلاً عن العبادات ، تغدو « الغريزة » معه ، مصدر خير ، وصلاح للانسان نفسه ، ومجتمعه ، بل وللانسانية

جمعاء ، وفي ذلك افساح للمجال أمامها ، لتمكينها من التعبير عن ذاتها ، وأداء
وظيفتها ، بالطرق المشروعة التي تعصم الذات الانسانية من الترددي في محنة
الكبت ، أو المصادرة ، أو الاعتقال ، وهو ضرب من المضادة لطبائع الأشياء ، وما
كانت تعاليم القرآن الكريم يوماً لتأتي ضدّاً عليها ، اذن لاستحالة النهوض بأعباء
التكليف ، ولعجز الانسان عن ذلك ، لسلبه الوسائل الفطرية التي زوده الله تعالى
بها ، تمكيناً له من القيام بعبء تبعات رسالته على أكمل وجه ! ومن فقد الوسيلة
الملائمة والناجعة ، فقد فقد الوصول ، وانقطع به الحال عن تحقيق الغاية ، اذ
لا غاية يمكن تحقيقها ، دون امكان اتخاذ الوسيلة التي من شأنها أن تُوصِّل إليها ،
وعلى الوجه الذي هو مظنة لذلك .

وعلى هذا ، فان الاعتقاد الحق هو - في واقع الأمر - فيصل التفرقة بين
عزة الوجود المعنوي للمؤمن ، وبين مذلة الغريزة المحضة السليقية غير الموجهة ، أو
وحشيتها وطغيانها ، مما يقيم الدليل البيّن على أمرين هما على غاية من
الأهمية :

الأول : ايجابية العقيدة الاسلامية ، كخصيصة من أصل خصائصها ، بما تملك
من القدرة على التأثير البالغ في تهذيب النفس الانسانية ، وتوجيه غرائزها ،
الوجهة الانسانية الفاضلة ، وتنميتها ، واستثمار طاقاتها ، لما فيه خير الانسان
نفسه ، أفراداً ، وجماعات ، وشعوباً ، وأممأ ، وإلى هذا المعنى الاشارة بقوله
تعالى : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » والضمير راجع الى « النفس »
التي تعني الغريزة لدى كثير من المفسرين ، ونظير ذلك قوله تعالى : « إنّ
النفس لأُمّارة بالسوء ، الاّ ما رحم ربي » اذ معنى « النفس » في هذا المورد
هو « الغريزة » أو مجموع الغرائز الفطرية غير الموجهة ، على ما أشرنا في المقال
السابق ، وأما التي أدركها التوجيه ، فهي مستثناة ، لنيلها حظها منه ، مما عبّر
عنه القرآن الكريم برحمة الله تعالى « الا ما رحم ربي » والتوجيه القرآني
كلّه رحمة .

الثاني : نتيجة لذلك ، كانت هذه « العقيدة » ضرورة حيوية - بقدر ما هي
ضرورة دينية - لتدبير الحياة الانسانية المثلى على وجه هذه الأرض ، بما ترفد
جانب الخير في الانسان ، من معين الفضائل ، والقيم الانسانية التي تزكّي بواعثه
النفسية ، ولا جرم أن « البواعث » هي العوامل النفسية التي تتحكم في توجيهه

السلوك ، وتحدد غاياته قبل التنفيذ ، فيتجه الى تحقيقها بعده ، فضلا عن أن تلك « الروافد » تنمّي ارادته الخلقية ، وتقوّي عزمه ، فلا يعرف النكوص ، أو التردد ، أو الخور ، ولا التهور ، تحقيقاً لتوازنه النفسي ، واعلاء لشأن ذاته ، وترقيتها صُعداً في مدارج الكمال ، والعزة ، والسيادة ، والكرامة الانسانية التي تتوق اليها النفس الانسانية بحكم فطرتها ، ويتملكها الرجاء الآمل المتفائل في تحقيقها ، حاضراً ومستقبلاً .

و - أثبت استقراء أي القرآن الكريم - فيما يتعلق بموضوعنا - أن الرجاء الايجابي العامل، والنابع من عقيدة التوحيد الخالص - مشوباً بالخشية والمهابة منه - سبحانه - واستشعار عظمتة ، ينبغي أن يقوم على أساس من « العمل الصالح » أي المثمر البنّاء ، ظهيراً للرجاء الحق في مفهومه الحقيقي في القرآن الكريم ، كشرط له ، أو شطر منه .

تجد هذا صريحاً في مثل قوله تعالى : « الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (٢٠) بما يشمل الاتقان والابداع فيه ، كما نوهنا ، وهذا النوع من العمل يندرج في مفهومه ، الفكري ، والوجداني ، والمادي ، لاطلاق النص ، وقوله سبحانه : « فمن كان يرجو لقاءَ رَبِّهِ ، فليعملْ عملاً صالحاً ، ولا يُشركْ بعبادة رَبِّهِ أَحَدًا » (٢١) .

ز - أقام القرآن الكريم الرجاء أو الأمل ، على أساس من العمل الجاد المثمر البنّاء ، كيلا يغدو الرجاء أو الأمل خواءً كالأماني الكواذب ، أو « ملهاة » تصرف عن تعقّل سنن الله في هذا الوجود .

هذا ، وانما عمد القرآن الكريم الى اقامة « الرجاء أو الأمل » على أساس من العمل المتقن المثمر البنّاء ، كيلا يكون رجاءً محضاً قائماً على خواء ، فيغدو مجرد « أماني » على حد تعبير القرآن الكريم ، قوامها الرؤى السانحة ، أو الخيال السادر المغرق في الوهم ، ولأنّ مثل هذه « الأماني » المجردة التي تراود النفس الانسانية عادة ، هي - في واقع الأمر - « ملهاة » تصرف عن تعقّل سنن الله في الوجود ، أو هي خَدَرٌ ينتاب النفس الانسانية ، فيغيب بها صاحبها عن واقع أمره ، أو هي مظهر لغفلة مزرية عن حقائق الحياة ، مما يشل الطاقات الحيوية المذخورة في الكيان الانساني عن أداء وظائفها التي خلقت من أجلها ، لعمارة الدنيا ، وأشار القرآن الكريم أيضاً الى أن مثل هذه الأماني « وعد من

الشیطان وعمله ، لا من ترجية الله وشرعه» مصداقاً لقوله تعالى : «يَعِدُّهُمْ ، وَيُؤْمِنُهُمْ ، وما يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ الا غُرُوراً» (٢٢) .

هذا ، واذا كانت «الأمانى» الكواذب من عمل الشيطان ، ووعد ، وغروره ، بصريح النص الذي تلونا ، فهي محرمة قطعاً ، لقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ، لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، ومن يتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، فانه يأمر بالفحشاء والمنكر» (٢٣) بخلاف وعد الله تعالى ، بمقتضى واسع علمه ، وعظيم قدرته ، وبالغ حكمته ، فانه حق ثابت ، «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا» (٢٤) وانه وعد متيقن الوفاء «ومن أوفى بعهد من الله» (٢٥) وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

وتأسيساً على هذا ، فان الشرود الذهني في الأمانى السادرة ، والاسترسال في خَدَرِ الآمال المجردة ، وبناء القصور الشامخة في الهواء - كما يقولون - محرم في القرآن الكريم قطعاً ، بصريح النص الذي تلونا ، كيلا يفتدو المرء تائهاً في بيداء الأخيلة والأوهام والرؤى ، منقطع الصلة بالواقع الحيوي ، ومبتوراً أو غافلاً عما أمر الله تعالى به من اتخاذ ما وضع سبحانه من السنن وضعاً تكوينياً ، ومما قضى تدبيره المحكم في الخلق ، وحكمته البالغة من جعل المسببات ناشئة عن أسبابها ، وبغير ذلك ، تكون «المعاندة» لله تعالى في سننه المطردة المحكمة ، وشرعه القويم ، ومعلوم : «أن الايمان والعمل بسنن الله تعالى في كونه ، كالايمان والعمل بأحكام الله تعالى في شرعه» سواءً بسواء ، اذ الكل من عند الله تعالى ، والا كان وضعها عبثاً ، والتوجيه الى النظر فيها ، تعقلاً وتفهماً وتدبراً ، لا وجه له ، وهذا مما يُنَزَّه عنه الخالق البارى جل وعلا !!

وأيضاً ، مما يؤكد هذا ، بل ومما يؤصله ، أن القرآن الكريم ، اذ أقام «الرجاء» - كما أسلفنا - على العمل الصالح النابع من عقيدة التوحيد الخالص ، بصريح ما تلونا آنفاً من قوله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يُشْرِكْ بعبادة ربه أحداً» (٢٦) أقول : ان القرآن الكريم ، اذ يقيم «الرجاء» على هذا الأساس المكين - والدعاء والتوكل مظهر من هذا الرجاء أيضاً - فانما يشير بذلك ، الى أن هذا هو ما تقتضيه السنن الكونية الثابتة المحكمة المطردة في الحياة والاحياء ، وان هذا «الرجاء» فرع عنها ، أو تطبيق لها ، فمرده اذن الى هذا الأصل الكلي ، أو السنن العام في الوجود الانساني .

ح - ليس ثمة من رجاء - يرتجى فيستجاب بمقتضى المنطق القرآني - اذا كان مبتوراً
عن أساسه ، ومسوّغ الاستجابة له ، من العمل الجاد المتقن ، والا كان مفرغاً من
محتواه القرآني .

ومفاد هذا ، أن ليس ثمة من رجاء - يُرتجى فيستجاب - بمضمونه القرآني
الحق ، مبتوراً عن سببه ، ومسوّغ الاستجابة له ، والا كان مفرغاً من محتواه
القرآني ، أو مقوماته الذاتية التكوينية ، كشطّر فيه ، أو شرط له - كما نوهنا -
وهذا - بلاريب - أصل حيوي ايجابي عظيم من أصول عقائد الاسلام وشرائعه ، لما تلونا ،
وهو قاض بأن العمل الصالح ظهير للرجاء الحق اذا كان باعثة الايمان الخالص ، بما
يستشعر الأمل عظمته سبحانه ، ويدرك غايته ، وسرّ الابتلاء فيه !!

يرشدك الى هذا ، أن النصوص الصريحة في الكتاب والسنة ، قد تضافرت
على اعتبار الرجاء اذا افتقد أساسه هذا ، مجرد أمانيّ كواذب ، - كما ذكرنا -
أثراً لغرور أو اغترار ، أو وهم ، أو غفلة مزريّة ، بل هو ملهاة صارفة ،
ومضيعة للحياة آخر الأمر ، وتسبب في خسارة الآخرة .

أما كون هذه « المنى » المراودة المجردة « ملهاة » تصرف عن المضى في
النهوض بأعباء التكالييف ومشاقها ، بل والجهد في سبيل المبدأ ، فقد أشار
القرآن الكريم الى ذلك بصريح النص ، في مثل قوله تعالى : « ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا ،
وَيَتَمَتَّعُوا ، وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » (٢٧) وعصيّ على المؤمن الحق ،
أن يكون هذا شأنه !

وفي تذييل الآية الكريمة بقوله تعالى : « فسوف يعلمون » من التهديد والوعيد
ما لا يخفى ، اذ قوامه « الانذار » بسوء المصير ، جزاءً وفاقاً ، لالهاء الأمل غير
القائم على أساس من الجد والكدح في العمل ، وهو على النقيض مما تقضي به
النصوص القرآنية الآمرة في مثل قوله تعالى : « يا أيها الانسان إنك كادح » إلى
ربّك كدحاً ، فملاقيه « (٢٨) ، دنيا وأخرى .

هذا ، واذا لاحظنا ، أن إلهاء الأمل من شأن الفاسقين ، كان ذلك دليلاً بيّناً
على أن العصيان ، والفسوق - لا الايمان - هو الذي يُشمر ملهاة الأمانى ، وخدر

الأمل الواهم البراق، ولا جرم أن «الالهاء» هو صرف الانسان عن الحقائق العليا في الوجود الانساني، والانجراف في تيار الشهوات، والغفلة عن سوء المصير، وفي هذا اشارة أيضاً الى أن «الحياة الانسانية» اذا خلت من «مثل أعلى» يجاهد الانسان في سبيل تحقيقه، وحمايته، كانت حياة الأشرار، والفجرة، لا حياة الأبرار والمصلحين !!

ط - الواقع - أنه لا يستسيغ عقل، ولا يستمرىء ضمير حي، التغلي عن المثل العليا في الحياة الانسانية التي تتعشقها النفس الانسانية بفطرتها، وترنو اليها، لتقترب منها، ويعتبر القرآن الكريم اطراح القيم الرفيعة، انسلاخاً عن لوازم الفطرة، وتعتبره «السنة» الصحيحة الثابتة، هو العجز والحمق بعينه •

هذا، والواقع أنه لا يستسيغ عقل، ولا يستمرىء ضمير حي، التغلي عن المثل العليا في الحياة الانسانية، واطراحها، بل هو الحمق والعجز بعينه، على ما تشير اليه تعاليم النبوة من قوله ﷺ: «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله «الأمني»» •

على أن من يفعلون ذلك، يضيّعون حق أنفسهم عليهم، من الارتقاء بها الى ما تصبو هي اليه بفطرتها من الكمال، وما ترنو اليه من الرفعة والعزة والسيادة، ولا يخفى ما في اضاعة تلك الحقوق من اشقاء للذات، وإذلال للنفس، واهدار للكرامة، وهبوط الى درك العجماوات لا محالة، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بالاخلاق الى الأرض، واتباع الهوى، كما أشرنا، في قوله تعالى: «واتلّ عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد الى الأرض، واتبع هواه» (٢٩) •

ي - يعكس لنا مضمون كل من الرجاء، والتوكل الحق، والضراعة اليه سبحانه «المواقف» الحيوية الحاسمة «للرعيل الأول، مما يجلي لنا، تصورهم لحقائق الحياة الانسانية في مفهومها القرآني، وما تستلزم من تفان، وتضحيات جسام في سبيل المبدأ الذي آمنوا به، مناطاً لغزتهم، وحریتهم، وسيادتهم في أوطانهم، بل وسعيهم لتحقيق المصلحة الانسانية العليا.

هذا، و «المواقف الحيوية الحاسمة» في سيرة الصحابة من الرعيل الأول، - رضوان الله عليهم - تعكس لنا مفهوم هذا الأصل العتيق، واقعاً، مما يجلي لنا تصورهم لحقائق الحياة في مفهومها القرآني، وما تستلزم من تفان وتضحيات

جسام في سبيل المبدأ الذي آمنوا به ، وأنه غُرم لا غُنم في المقام الأول ، وأن اعتناقهم للإسلام ، ومبايعتهم للرسول ﷺ على ذلك ، هو عهد وميثاق على الاستماتة في سبيل قِيَمِهِ الانسانية الخالدة ، وليس مراحاً لما عسى أن يساور نفوسهم من آمال وأمانٍ ، ومطامع شخصية ، في أغراض ومنافع عاجلة ، من سلطان ، أو جاه ، أو ثراء ، استغلالاً وانتهازاً للفرص ، وانما هو - كما أسلفنا - جهاد "نَصَب" ، وصراع "عاتٍ مُرَّةٍ" بين الحق والباطل ، والخير والشر ، بل انهاك لأنفس أشرافهم ، وكرائم أموالهم ، ترى ذلك بيئاً صريحاً فيما تجلّيه لنا السيرة من « موقف » العباس بن عباد الخزرجي حين همّ قومه « الخزرج » بمبايعة الرسول ﷺ في بيعة « العقبة الكبرى » حيث نهض قائلاً وعلى مسمع ومرأى من الرسول ﷺ : « يا معشر الخزرج ! هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم : قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة » ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه (٢٠) (خذلتموه وتخليتم عن نصرته) فمن الآن فدعوه ، فهو - والله ان فعلتم - خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بمادعوتهم اليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فانا نأخذه على ما يصيب الأموال ، وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » قالوا أ'بسط يدك نبايعك ، فبسط يده فبايعوه « (٢١) .

ويُستنبط من مضمون هذا النص الذي أقره الرسول ﷺ فكان شرعاً ثابتاً بالسنة التقريرية ، مبادئ هي على غاية من الأهمية والخطورة :

أولاً - أن اعتناق الاسلام انما هو عهد وميثاق مقدس بين الله تعالى وعباده المؤمنين به ، على التضحية والجهاد بالأموال والأنفس ، في سبيل مبادئه وقِيَمِهِ ، تنفيذاً وحماية ونشراً وتبليغاً ، بما هي مناط لتحرير أنفسهم وأوطانهم ، من عدو مغتصب ومتربص بهم .

ثانياً - أن الأمل بعزة الدنيا ونعيم الآخرة ، رهن " بالوفاء بهذا العهد الذي قطعوه على أنفسهم ، وكانوا على بصيرة منه من أول الأمر ، ابّان اعتناقهم للإسلام ، ومبايعتهم رسوله ﷺ على الوفاء بالتزاماته ، مهما كلفهم ذلك من تضحيات ،

والا فان الاسلام ليس ميراثاً ، ولا تقليداً ، ولا مجرد انتماء : « إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » .

ثالثاً - أن برق الأمانى خُلِّبَ ، ليس وراءه خير ، ولا غيث ، ولا خِصْب ، ولا نتاج ، ان لم يُعقب سوء المال ، وشقوة الحياة ، وخسار الآخرة .

رابعاً - ان القرآن الكريم لا يجيز الغفلة عن الحقائق العليا في هذا الوجود ، لأن الغفلة من ثمرات الكفر ، فكانت الغفلة مناطاً لسوء المصير في الدنيا والآخرة معاً ، وأما الايمان فهو قائم على « البصائر » وحقائق الحياة « يا أيها الناس قد جاءكم بصائر من ربِّكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها » فكان على النقيض من هذا ، الغفلة عن مصير التلهي بالأمانى الكواذب !

خامساً - ان الرفعة والعزة والسيادة - وهي مطامح النفس الانسانية بفطرتها - لا تُنال الا بمشاق التكاليف ، وأهوال الصراع ، وأن الدنيا - كما صورها القرآن الكريم - ليست مفروشة بالورود ، ومن ظن ذلك ، فقد وهم ، وكان في غفلة عن حقائق الاسلام ، وواقع الحياة الانسانية ، وسُننها الكونية الثابتة ، وعرضة للمذلة والهوان ، والظلم والشقاء ، بملهاة الأمانى ، بل هي أمارات الحُقم والعجز ، على ما صرَّحت به تعاليم النبوة ، كما أشرنا .

سادساً - أن بيعة « العقبة الكبرى » - بما ثبت أنها كانت مفتاحاً للنصر معنوياً ، على العدو ، ولإقامة الدولة التي تحميهم بعد فترة قصيرة منها - قد جعلت العهد والميثاق حقاً في عنق كل مسلم ، عبر الأجيال ، الى يوم القيامة ، لأنها مناط النصر ، وعزة الدولة ، وسوء دود وجودهم الانساني المعنوي الرفيع .

سابعاً - ان الصراع العاتي بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحكمة والهوى ، مستمر أبداً ، ما دام في الدنيا انسان ، لأنه من سُنن الله الثابتة في الوجود « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ومن هنا فرض الجهاد في القرآن الكريم ماضياً الى يوم القيامة ، فريضة من أجلِّ الفرائض فيه ، بل هو ذرْوَة 'سنامه' ، عملاً بمقتضى تلك السُنن ، فكان شرعه سبحانه ، مطابقاً لسُننه الكونية ، كما ترى .

ثامناً - ان « المثل العليا » في حياة المسلم الحق ، هي « القيمة الكبرى » التي تملو حتى على حياته ، فضلا عن أمواله ، وأن تضحيته بحياته في سبيلها ، هو مادة ابتلائه في صدق ايمانه بها ، وأن أمله متركز في نعيم الآخرة ، وان تحقيق هذا الأمل - لا محالة - رهن بعمله وجهاده في الدنيا ، كل على قدر طاقته ، لِمَحَقِّق مظاهر الظلم والبغي والعدوان والفساد والاستعمار والاستكبار ، والاستضعاف في الأرض ، أيّاً كان الظالم ، وأيّاً كان المظلوم ، ولو لم يكن هذا المظلوم المستضعف ممن يدين بالاسلام ، تحريراً للبشر كافة من ربقة الظلم ، لأن « العدل » في الاسلام « مطلق » لا نسبي ، وهو حق مشترك للبشر كافة ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، والا ما كان الاسلام رحمة للعالمين ، فتطابقت بذلك غاياته ومثله ، مع مبادئه وأحكامه - كما ترى - تطابقاً عقلياً وواقعياً معاً ، كل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ، وتحقيق مصلحة الانسانية العليا ، دون تمييز بلون أو عنصر ، أو دين ، من خلال تنفيذ هذه الرسالة الالهية الخالدة في المجتمع البشري ، ودون مطمع في مغنم مادي عاجل ، أو شهوة الاستعلاء في الأرض ، ولا نعلم بديلاً في سائر شرائع السماء والأرض ، هو خير من هذه المثل والأصول والغايات !!! .

وقصارى القول أن استقراء أي القرآن الكريم ، أثبت أن الأمل ، أو الرجاء « ايجابي » لا ارتباطه بالعمل الصالح المثمر البنّاء ، مسوّغاً لاعتباره ، واستحقاقه الاستجابة له في الدنيا ، والمثوبة على تحقيقه عملاً ، في الآخرة ، وبديل أن القرآن الكريم نفسه « قد ربط الرجاء بالعمل الصالح ربطاً الشرط بالجزاء ، على وجه محكم لا يقبل الانقسام ، وبصيغة أمرة : « فليعمل » في مثل ما تلونا آنفاً من قوله عز شأنه : « فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل » (٢٢) .

م - أفرغ القرآن الكريم من « الرجاء » معنى « الأمانى » الكواذب ، ليكسبه معنى جديداً - كحقيقة من حقائق القرآن الكريم - هو مزاج من عنصري الخشية والمهابة لله وقاراً ، ومن الأمل المشرق المستبشر ، دون فصل .

أما عنصر الخشية في معنى الرجاء ، فيتبدى في مثل قوله عز وجل : « ما لكم

لا ترجون لله وقاراً» (٢٣) فايحاء «الوقار» بمعنى «المهابة في الرجاء - كما ترى -
ظاهر لا يخفى ، والى هذا المعنى أشار المحققون من المفسرين .

يرشّح هذا ، أن «الرجاء» في لقاء الله تعالى ، في مثل قوله سبحانه : « فمن
كان يرجو لقاء ربّه » (٢٤) ليس خلوأ من «الرهب» بداهة ، وهو ما يوحى به
أيضاً ، تأكيد هذا اللقاء ، وأنه «حتمي» في مثل قوله عز شأنه : « فمن كان يرجو
لقاء ربّه ، فإنّ أجل الله ، لآت » (٢٥) وقوله جل ثناؤه : « وإنّ الدين
لواقع » (٢٦) والدين هنا بمعنى يوم الجزاء .

وأما عنصر «الاستبشار» فهو الأصل في معنى الرجاء ، أو الأمل ، لأن أي
القرآن الكريم قد جاءت تترى في هذا المعنى ، تبث «روح البشري» في نفوس
المؤمنين ، من مثل قوله تعالى : «ويُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، أَنَّ
لَهُمْ أَجْراً حسناً ، ما كَثُرَ فِيهِ أبدأ» (٢٧) وقوله عز وجل : « ويُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كبيراً » (٢٨) وقوله سبحانه : « وأنبأوا الى ربهم ،
برحمةٍ منه ، ورضوانٍ ، وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم » (٤٠) .

على أن «الرجاء» اذا كان منشؤاً حسن الظن بالله - كان هذا من صميم
العبادة ، بصريح السنة الثابتة ، لقوله ﷺ «حسن الظن بالله ، من حسن العبادة»
بل جاء الحديث القدسي ، ليقرّر هذا الأصل على نحو أكد ، فيما يرويه
الرسول ﷺ عن ربّه : « أنا عند حسن ظن عبدي بي » وفي هذا من الترجية
والترغيب ما فيه !!

ك - اقتران الرجاء - بمفهومه القرآني - بالعمل والعطاء ، اقتران الشرط بالجزاء ، يدل
على أن الانسان - في ضوء الحكمة القرآنية - انما يحيا للأمل والعمل ، أو بالأحرى
للرجاء الايجابي العامل ، فضلا عن أن هذا الاقتران يدل على أنه سنة من سنن
الوجود .

ان «الرجاء» بمفهومه القرآني الجديد ، اذ جاء مقترناً بالعمل الصالح اقتران
الشرط بالجزاء ، على ما هو مفاد الآية الكريمة التي تلونا آنفاً ، يدل على أنه
سنة الهية في الوجود ، وأن الانسان - في ضوء الحكمة القرآنية - انما يحيا للأمل
الاجباي العامل ، بمقتضى هذه السنة ، بما يشوب هذا الأمل من الخشية المؤمنة

المهيمنة والموجهة على نحو يُقيم «التوازن النفسي» الذي يعصم من السَّرف والاغراق في الأمل ، أو الاستنامة الى أحلام المنى - وهماً وغفلة بل وحُمقاً - وهو اذ يعصم من ذلك ، يدفع - في الوقت نفسه - الى « العمل » الجاد ، بما هو ذخر المرء يوم اللقاء الحتمي ، ومناطق الاستجابة له واثابته عليه فضلاً عن كونه يضبط السلوك ، ويوجّه النشاط الحيوي عن أن يتحرّف عن معدّلة الطريق ، مما يعمر قلب المؤمن من الخشية لله تعالى التي من شأنها أن تورث التبصير الموقظ للوعي العقلي والوجداني بعُقبي الدار ، حيث يتم حتم هذا اللقاء .

هذا ، واذا لاحظنا ، أن « مجال » العمل الصالح الذي يستغرق كافة وجوه السعي والنشاط الحيوي للانسان - فكراً ووجداناً ، وعملاً مادياً - اذا لاحظنا أن مجال ذلك كله ، انما هو الحياة الدنيا ، وأن الآخرة دار الجزاء والقرار ، كان مفاد الآية الكريمة من قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً » أن لا رجاء للمؤمنين في شيء من نعيم الدنيا وعزتها ، والسيادة فيها ، ولا في نعيم الآخرة ، جزاءً وفاقاً ، الا بالعمل الصالح ، وهو أساس عِمارة الدنيا ، والحضارة الانسانية - حتى اذا كان أملاخواءً ، وتواكلا لا ظهير له من عمل ، فقد انقطع الأمل أو الرجاء عن أساس اعتباره شرعاً ، وعن مسوغ الاستجابة له من قبل الله سبحانه ، بل هو « اثم كبير » لأنه انحراف عن سنن الله شرعاً وتكويناً ، بصريح النصوص التي تقضي بأنه : « من وعد الشيطان وعمله ، لا من وعد الله وشرعه » من مثل قوله تعالى : « يَعدُّهم وَيُمَنِّيهم ، وما يَعدُّهم الشيطان إلا غروراً » ، بل هو من شأن الفاسقين والكافرين ، لقوله عز وجل ، « ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا ، ويتمتعوا ، وَيُلْهِمُهم الأمل ، فسوف يعلمون » (٤١) ، فكان الأمل المجرد عن العمل الصالح - ومنه التواكل - كما ترى - ملهارة صارفة عن حقائق الاسلام وشرعه ، ومضيعة للحياة ، وخسران الآخرة ، كما قدمنا .

هذا ، ولا يخفى ما يوحى به تذييل الآية الكريمة من قوله تعالى : « فسوف يعلمون » من التهديد والوعيد ، حفز للطاقات والهمم الى العمل ، ومكابدة السعي الدنيوي المسئول ، باثارة المشاعر الانسانية المتباينة من الرهب والرجب ، لتتضافر على بعث الارادة الخليقة الخيرة التي تتجه به الى سواء السبيل .

ل - معاني النبوة ، تؤكد مفاهيم الكتاب العزيز ، في هذا الصدد ، حيث تلفت الانسان الى أن « الايمان » هو مصدر « الكياسة والفطنة » لا مصدر الخدَر ، والوهم ، وأحلام المنى !

على أن معاني النبوة تؤكد مفاهيم الكتاب العزيز ، في هذا الصدد ، حيث تلفت الانسان الى أن « الايمان » هو مصدر « الكياسة والفطنة » لا الخدَر والوهم وأحلام المنى ، فلا يداخل المؤمن الحق غرور ، ولا ينتابه اغترار ، أو غفلة عن واقع أمره ، وعن مقتضى سنن الله في الوجود ، وانما يدفع المؤمن ايمانه الى التعبير عنه بالعمل الجاد المتقن ، ثم محاسبة النفس ، اعداداً لها لما تؤمن به من النقاء الحتمي بالله تعالى يوم الحساب ، في مثل قوله ﷺ : « الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

وهذا تقرير للمعنى القرآني في قوله تعالى : « ليس بأمانِيَّكُمْ ، ولا بأمانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، ولا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » (٤٢) .

فوضح بما لا يدع مجالا للشك ، أن ايمان المرء لا يعصمه من توقيع الجزاء عليه ، لما فرط في جنب الله ، اذ لا ينفع نفساً ايمانها دون تعبير عملي عنه بجهد مستمر ، وكدح دائم ، هو آية صدقه ، ومناط الابتلاء فيه ، لقوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا ، أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٤٣) .

الفصل العاسم بين التمني والرجاء في القرآن الكريم .

يميز القرآن الكريم بين « التمني » و « الرجاء » تمييزاً بيئاً ، وما كان لمؤمن أن يداخله من الشيطان غرور الأماني ، وهو يعيش عقيدة التوحيد حقاً ، لقوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » (٤٤) وانما من شأن الايمان الحق ، أن يسبغ على النفس الانسانية ، الكياسة ، والفطنة ، والذكاء ، والتبصر بمواقب الأمور ، وأن يحملها على « المحاسبة الذاتية » وفقاً لمفهوم الحديث الذي رويناه ، وهذا - كما ترى - على النقيض من الغفلة ، والوهم والخدَر ، والاسترسال في رؤى الأماني ، واتباع الهوى .

م - مقام اليأس، يعالجه القرآن الكريم بأسلوب التبشير والترجية ، احياءَ للأمل في غفران الذنوب جميعاً ، شريطة الانابة الصادقة النصوح اليه تعالى ، تجنيباً للنفس الانسانية من التردى في وهده ، ولحملها على عدم الاسترسال في قنوطها ، وليُحيى من مَوَات هذه النفس آخر الأمر ، ما يعينها على استئناف حياتها الأملّة العاملة من جديد .

على أن ذلك الأصل الذي بيّنّا آنفاً ، لا يتنافى مع مقتضى قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (٤٥) لأن هذا - على ما سيأتي تفصيل القول فيه - في «مقام اليأس» حيث يبث القرآن العظيم في النفس اليأس ، روح التبشير والترجية ، كيلا تسترسل في قنوطها ، وليُحيى من موات هذه النفس ما يعينها على استئناف الحياة العاملة الأملّة من جديد شريطة الانابة الى الله تعالى فهو - كما ترى - نوع من المعالجة والتربية ، يستهدف استنقاذ النفس الانسانية مما عسى أن تتردى فيه من وهدة القنوط ، كيلا تنهار معنوياتها ، وتتحطم قواها ، وتستسلم للموت المعنوي الحكمي ، فتضعف حينئذ عن مواجهة صعاب الحياة ، والمجاهدة فيها ، أو بالأحرى ، تخلصاً لها ، مما عسى أن تعاني من ويلات هذا اليأس المبيد ، وتراه لا يفتأ يحذرهما من التردّي في حماته ، حيث يجعل «القنوط» قريناً للكفر ، بصريح قوله عز وجل : « انه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون » وهذا بخلاف مقام الاسترسال في الهوى ، والشهوات بداهة ، اعتماداً على غرور الأمانى حيث ترى القرآن الكريم في هذا المقام يؤكد وجوب الجزاء على اجتراح المعاصي - عدلاً وردعاً - وقطعَ الأمانى الكواذب ، ايقاظاً لوعي النفس الانسانية - عقلاً ووجداناً - وتبصيراً لها بمآل أمرها ، واستنقاذاً لها مما عسى أن تتردى فيه من حمأة الشهوات ، واستغراقها فيها - غفلة وضلالة وهوى - ففي الحالين - كما ترى - معالجة للنفس الانسانية ، غير أن لكل من المقامين أسلوباً تربوياً خاصاً يلائمه ، ويوافق مقتضى حاله ، من أغلبية الترجية أو الترهيب ، وهذا من أساليب البلاغة بسبب ، فظهر الفرق بين حال الانغماس في الشهوات ، وبين حال معاناة اليأس والقنوط ، ولكلّ أسلوب معالجته الذي يلائمه ، كما رأيت .

على أن أمر الرجاء الانساني في المغفرة الشاملة ، بعد الامتثال والتوبة

النصوص ، رهن بمشيئة الله تعالى على أي حال ، ترجية وبشرى ، واحياء لموتى النفوس ، ولا ريب أن رحمته سبحانه قد وسعت كل شيء •

هذا ، والقرآن الكريم ، اذ يعالج النفس الانسانية بأسلوب الترجية والتخويف ، جامعاً بينهما ، دون فصل ، واذ يحدد سُننه في الرجاء - والتوكل والدعاء من مظاهر الرجاء - انما يُرسي أصلاً عتيداً من أصول منهجه التربوي الحيوي العملي ، بما يوجه النفس الانسانية الى غاياتها ، ومثلها العليا ، ليحفظ عليها ذاتها ، ويصون معدنها الأصيل ، أن يذهب شعاعاً ، ويتمزق بَدْداً ، كما يُنميها ، اعتقاداً ، وعملاً ، باستثمار كافة طاقاتها وملكاتِها ، وقدراتها ، في خيرها وصلاحها ، أفراداً ، وشعوباً وأُمماً ، ويدراً عنها غوائل التدمير العارضة ، ليضعها على الجادة القويمية ، سوية على أصل فطرتها : « إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »^(٤٧) ثم نراه لا يني يقوي روحها المعنوية اذْ يربطها بالملأ الأعلى ، تحريراً لها من ربة الهوى ، واستمراء الظلم والعدوان ، وتجنبياً لها من كل ما من شأنه أن يطفئ اشرقة الأمل في كيائها ، إعلاءً لذاتها ، وارتقاءً بها الى استشراف غاياتها المثلى ، وتمكيناً لها من النهوض بأعباء رسالتها الانسانية في الأرض ، ومشاق تكاليفها التي تُفسر معقولية وجودها الانساني على هذا الكون ، نشأةً ومصيراً •

ن - الترجية والتخويف - في مفاد النص القرآني - يشتدان في مواطن اليأس ، ومظانته ، ومُحتملات وقوعه ، ولكن الترجية - في مثل هذا المقام - أغلب - استجابة لمقتضى الحال •

ووجه ذلك ، أن افتقار اليأس فعلاً - أو المتوقع أن تتسرب اليه أسباب القنوط - أقول : ان افتقاره الى روح الأمل يُبعث في نفسه ، والى اشراق الترجية ، يبدد من ظلمات آفاقها ، والى اعادة اعتباره ، مؤمناً منيباً صادقاً ، أشد من افتقاره الى « التخويف » الذي بات يعاني من آثاره ، أو يخشى أن يقع فيه ، اذ « الخوف » الغرزي من أهم أسباب القنوط ، كل ذلك « وقاية » للنفس الانسانية أن تتردى في مهوى القنوط القاتل ، أو تسترسل فيه بعد الوقوع ، فكان ، وقايةً وعلاجاً معاً ، ترى ذلك واضحاً في « البشرى » التي يرفقها القرآن الكريم ، في الآية الكريمة الى من هم في مثل هذه الحال - على ما يوحى به سبب النزول - بأنه - سبحانه -

« يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (٤٨) هكذا على سبيل التعميم في الذنوب ، والتأكيد في المغفرة !!

على أنك لترى التخويف يقارن هذه الترجية في الآية نفسها ، جمعاً بينهما ، ولكن على نحو أخف من الترجية ، حيث جعل مقت الحياة ، وانقطاع الأمل الفطري في الاقبال عليها ، وتأصل كراهية استمرارها ، جعل كل أولئك ، يأساً من رَوْحِ الله ، ورحمته ، في تفريج الكُربِ مهما عظمت ، وليس قنوطاً نفسياً مجرداً من الحياة فحسب ، وصلاً لروح الدين بالسعي الحيوي في الدنيا ، ثم يشتد التخويف من اليأس ، بجعله « قرين الكفر » سواء بسواء ، تنفيراً من اليأس ، لقوله سبحانه : « انه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلاَّ القوم الكافرون » (٤٩) ولكن « الترجية » في هذا المقام أغلب من التخويف على الرغم من شدته ، لما بيَّنّا ، وفي هذا المعنى ، يقول الامام الشاطبي : « وترد الترجية أيضاً ، ويتسع مجالها ، وذلك في مواطن القنوط ومظنّته ، كما في قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم » (٥٠) الى أن يقول : « فهذا موطن خوف يُخاف منه القنوط ، فجيء فيه بالترجية غالبية » (٥١) .

هذا ، ووجه الدلالة في الآية الكريمة التي تلونا ، أنها قد ساقّت « الترجية » على نحو أشد وأكّد وأغلب من التخويف ، اذ قد سوّرت الآية الكريمة بأداة التأكيد « ان » « تقويةً لمعنى خبرها : « ان الله يغفر الذنوب » هذا من جهة ، وبإطلاق الذنوب ، اذ لم يُقيّدْها بكونها « صغيرة أو كبيرة » (٥٢) ، من جهة أخرى ، ثم جاء النص القرآني بعد ذلك ، بلفظ « جميعاً » تأكيداً للتعميم في « الذنوب » بما يرفع احتمال التأويل أو التخصيص ، وهو ما يطلق عليه الأصوليون « النص المُفسّر » (٥٣) الذي يفيد مدلوله على سبيل القطع بالمعنى الخاص ، اللهم الا « الاشراك » لورود نص خاص قاطع بشأنه ، من حيث انه سبحانه « لا يغفر أن يُشرك به » لفساد أصل الاعتقاد .

هذا ، ووصف القرآن الكريم للمسرّفين على أنفسهم ، بأنهم « عباده » وتوجيه الخطاب الالهي اليهم بهذا الوصف ، وبأداة النداء التي تفيد التقريب « قل يا عبادي الذين أسرفوا » . احياء لهم بالتعطف الداعي الى ازالة أسباب الخوف والوحشة

من نفوسهم ، بل فيه احياء لِمَوات الرجاء في قلوبهم ، وذلك باشعارهم بأنهم - على الرغم من اسرافهم في أمرهم - لا يزالون أهلاً للتقوى والمغفرة ، يناديهم ربهم ، لِيُقَرَّ بِهِمْ اليه ، اذ لم يُخرجهم من سائر عبادته الذين يرجون رحمته ، وان اسرافهم في أمرهم ، ينبغي ألا يحملهم على اليأس من رحمته سبحانه ، وقد وسعت كل شيء ، ما دام اسرافهم هذا لم يذهب عنهم - بمنطوق الآية الكريمة - وصف « العبودية » التي تستأهل الغفران والرحمة - كما أشرنا - بمقتضى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » اذا هم أقبلوا على ربهم منيبين اليه ، واستأنفوا حياة انسانية جديدة مطهرة .

يشير الى هذا المعنى أيضاً ، قوله تعالى في الآية التي تليها : « وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، وَأَسْلُمُوهُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِفِتْنَةٍ ، وَانْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » (٥٤) .

وفي هذا من التخويف ما فيه !! جاء مقارناً للترجية في الآية الكريمة السابقة ، على وجه أقوى ما تكون فيه الترجية والتبشير .

على أن القرآن الكريم يلقي هؤلاء المسرفين دعاءً خاصاً بهم ، ترجية لهم ، واطمئناً ، أن يغفر لهم ذنوبهم التي أسرفوا فيها ، بقوله سبحانه : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَاسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا » (٥٥) توطئاً لأنفسهم على التوبة النصوح ، والاناة الصادقة ، والاتجاه الى الله تعالى بنية خالصة ، وقلب سليم ، وعزم صميم على الطاعة ، في ضراعة الى الله تعالى ، أن يعينهم على هذا ، ويوفقهم اليه .

وهكذا ترى ، ان الانسان كلما حَزَبَه أمر ، أو حاقت به العوارض والخواطر ، فازداد خيفة من اسرافه على نفسه ، واسترساله في الذنوب ، حتى بلغ به الخوف مستوى طفق يشعر معه بشارف القنوط ، أو داخله روح اليأس فعلاً ، حتى انقطع منه حبل « الرجاء » في مغفرة الله سبحانه ، أو انطفأت اشراقه الأمل الوهاجة في نفسه فطرةً ، أو كادت ، ازدادت « الترجية » في القرآن الكريم ، شدة وغلبة ، تبعاً لذلك ، وصدى مطابقاً لمقتضى هذه الحال ، وهذا أصل من أصول البلاغة ، بل هو روحها ، واكسير معناها .

وكذلك « التخويف » يزداد - في مثل هذا المقام - بالنهي المُحرِّم للقنوط ،

أولاً ، « لا تقنطوا من رحمة الله » ، ويشتد التخويف حتى يجعل القرآن الكريم القنوط قريناً للكفر ، كما أشرنا •

وعلى هذا ، فإن شدة الترجية - في القرآن الكريم - تصعد حتى تبلغ مستوى شدة اليأس ، استئصالاً لأصوله ودواعيه من النفس الانسانية ، وتعفية على آثاره ان وقع ، اذ لا يجتمع في النفس الانسانية ، ايمان ويأس ، من قبل أن اليأس لا يمكن أن يكون للايمان قريناً ، وانما هو قرين الكفر بصريح النص ، تلك سنن كونية لله تعالى ثابتة ، وفي هذا دلالة بيّنة على أن « النفس الانسانية » اذا أخلصت نفسها لله تعالى ، ايماناً وطاعة ، وخشية ، ورجاءً معاً ، فقد برئت في الوقت نفسه - من أسباب اليأس كافة ، وهو أهم سبب من أسباب الموت الحكمي ، بل يستعصي على « القنوط » أن يجد في الأنفس الانسانية التي أشربت روح الايمان أن يجد تربة صالحة تنمو فيها بذوره ، فضلاً عن أن تتأصل فيها جذوره ، وانما يجد تربته الخسبة في النفس الانسانية ، اذا كانت خلوأ من معاني الايمان بالله تعالى ، لانتفاء ما يتفرع عنه ، من الأمل المرجو ، في الله ، أو لضعف الثقة به سبحانه ، أو انعدامها ، وهو ما أشارت اليه الآية الكريمة كسنة ثابتة - حيث جعلت الكفر وصفاً لليأس : « إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » وفي هذا من التنفير والتخويف من المصير الى مثل هذه المواقف ، ما فيه !!

ص - القرآن الكريم ، يعالج النفس الانسانية بهذا الأسلوب التربوي ، من الترجية والتخويف ، تأديباً ، وفقاً لما جلبت عليه الفطرة الانسانية نفسها من الرجاء المشوب بالخشية ، ليحفظ عليها معدنها الأصيل ، ويدبر عنها غوائل التدمير العارضة ، وينعدها لمواجهة الصعاب ، ومقارعة الأهوال ، وتحمل مشاق التكاليف ، وخوض غمار الحروب ، عند الاقتضاء ، دفاعاً عن المبادئ التي آمنت بها ، وتفدية للأوطان ، والأموال والاعراض ، في كافة المواقف الحيوية ايجاباً ، وسلباً •

أ - أما سلباً ، فعلى النحو الذي رأينا في حالة اليأس المردى ، أو مظنته ، واحتمال وقوعه ، بما يهدم في الانسان شخصيته المعنوية ، ويبدد طاقاته النفسية - فكراً ، وشعوراً ، وملكات ، وارادة - ثم يذرُه هكذا ، لقي مضيقاً ، ميت الروح ، مشئت الفؤاد ، مشلول الارادة ، كاسف الرجاء ، مسودّ الرؤى ، هابط الهمة ، لا يتوقع من الحياة والاحياء الا الشر ، فتشتد « الترجية » حينئذ بما

يناسب هذه الحال ، دون أن تخلو من عنصر التخويف ، اتساقاً مع منهج القرآن الكريم ، كما بيّنا ، بثاً لروح الأمل ، وبعثاً لموات الرجاء ، وتقوية للقوى المعنوية بوجه عام ، ليستأنف الحياة من جديد ، قويّ العزم ، مُسدّد الخطى ، واضح الرؤية ، مشرق النفس ، ثابت القلب والقدم !

ب - وأما إيجاباً ، فلأنه يدفعه الى « العطاء المطلق » والعمل المُجدي دفعاً قوياً ، ما دام قد أدرك أبعاد سنة الله تعالى ، ترى ذلك في قرنه العطاء بالرجاء ، قرّنَ الشرط بالجزاء ، لقوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »^(٥٦) كما أشرنا ، وانه لا أمل بلا عمل ، أو عطاء مطلق ، نهوضاً بأمانة التكليف ، وأداءً للرسالة التي حُمِّلها ، حتى ليبلغ به صدق الامتثال ، والطاعة ، حد التضحية بالنفس والمال ، لتحرير نفسه ، وأمته ، وتحرير غيره أيضاً من المستضعفين في الأرض ، ولو كانوا مخالفين في الدين ، تنفيذاً لما يفرضه المعنى الانساني فيهم - كما بيّنا - ولأن التحرير من الظلم - لا سيما على الصعيد الدولي - هو الغاية القصوى ، من انزال الشرائع السماوية ، وارسال الرسل : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»^(٥٧) ، لا المسلمون وحدهم ، وان كانوا هم حَمَلَةُ ميزانه بين البشر .

على أن هذا من « حقوق الله تعالى في المجتمع البشري » أيّاً كان المظلوم ، وأيّاً كان الظالم ، ذلك لأن « حقيقة الألوهية » لا تعرف التفرقة والتمييز بينهما ، ولأن هذا « الحق » أو الحرية ، وثيق الصلة بمعنى « العدل المطلق » في الاسلام ، والعدل لا يتجزأ ، بل هو حق مطلق مشترك حتى ولو كان المظلوم عدواً ، ولا نعرف ايجابية في شرائع السماء والأرض ، أسمى وأرقى من هذا المعنى !!!

ع - القرآن الكريم يسلك سبيلاً قاصداً وسطاً ، تحقيقاً للتوازن النفسي ، ابان معالجته لحالات النفس الانسانية ، بشاره ونذاره .

على أن القرآن العظيم ، اذ يضع هذا المنهج التربوي في ضوء ما يتعاور النفس الانسانية نفسها بأصل فطرتها ، من الرجاء ، والخشية ، أو الحذر المترقب فانما يحرص على اقامة « التوازن النفسي » ، فتراه يسلك سبيلاً قاصداً وسطاً ، لا يتحرّف من معدلة الطريق في معالجته ، لما يعترى النفس الانسانية من

عوارض وأحوال ، فلا يتركه في مقام التخويف ، فريسة سهلة للجبن والخور والانزواء ، واليأس من جهة ، لأن هذانقيض ما تقتضيه رسالة التكليف ، من تحقيق الفضائل ، والقيم ، والمثل الرفيعة التي جاء بها الاسلام ، وبما تستلزم من البسالة ، والتضحية ومشاق التكليف ، كما لا يُسلمه ضحية لأحلام المنى ، والاغراق في الوهم ، والامعان في الاغترار ، من جهة أخرى ، لأن كليهما تطرف " يُفقد التوازن ، فلا يستقيم معه أمر النفس الانسانية ، فكان هذا « الاعتدال » أنجع أسلوب علاجي لمكامن الضعف في النفس البشرية المؤمنة ، بما يكفل لها الشفاء ، اذ هو أسلوب يتفق وسنن فطرتها ، من حيث أنها آملة عاملة مترقبة حذرة مصداقاً لقوله سبحانه : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ الْخُسَارَا » (٥٨) .

وعلى هذا ، فمن أسباب الشفاء ما جاءت به الآيات التي نهضت بهذا الأسلوب النفسي التربوي الذي يتفق وما يتعاور النفس الانسانية في أصل معدنها وفطرتها ، من الرغبة والرغبة - توجيهاً ووقاية ، وعلاجاً هو من أصل دواعي الرجاء ومثيرات الأمل المستبشر ، أما « الخسار » فمن عوامل التخويف التي تحمل على عدم التسبب في ايجاده ، أو استحقاقه ، وكل من الأمل الراجي ، والخوف الحذر ، علاج وتربية وتوجيه معاً ، يكون فيها الشفاء النفسي ، اذا سلك المؤمن ما ترسمه الآيات الكريمة المتعلقة بهما ، وهذان مما تقتضيه « الحكمة » البالغة المترنة ان لم يكونا ما صدقاً لها .

ف - اتزان الأسلوب القرآني النفسي التربوي - ترجية وتخويفاً وتغليباً لأحدهما على الآخر ، حسبما يقتضيه المقام - يبدو (الاتزان) في أن الرهب ، لا يذهب الرغب ، كما أن الرجاء ليس بمذهب من خشية الله تعالى ، ومهابته شيئاً .

يدلك على هذا ، أنه لو كان ثمة تناف أو تناقض ، لما جمع القرآن بينهما ، في آية واحدة ، كما رأيت ، تصوراً ووقوعاً ، أو فيما يسبق الترجية ، أو يلحقها ، أو يقارنها من تخويف ، لكن الله تعالى جمع بينهما ، على نسق واضح محكم ، نصاً أو دلالة ، وفقاً لما تقتضيه العوامل النفسية في كل مقام ، وهو ما أشار اليه الامام الشاطبي ، فيما عرضنا لك في مبتدأ البحث ، حيث يقول ما نصه : « اذا ورد في القرآن الترغيب ، قارنه الترهيب ، في لواحقه ، أو سوابقه ، أو قرائنه » (٥٩)

وهذا يعني أن لو كان بينهما تناقض من حيث التصور أو الوقوع ، لما اقترنا أصلاً ، ولما جمع القرآن بينهما ، لأن هذا من التخالف الذي يُنزّه عنه القرآن في معانيه ومقرراته ، اذ النقيضان - كما هو معلوم - لا يجتمعان ، عقلاً ، وشرعاً ، ووقوعاً ، بل جاء وفقاً لمنازع الفطرة الدائرة بين الخوف والرجاء .

ص - يؤكد القرآن الكريم معنى « الترجية » و « الاطماع » يؤكد بالعطاء المطلق المعبر عن القيم الانسانية ، مضموناً وهدفاً ، كمطلقات أساسية له ، وهي ما أطلق عليه القرآن الكريم « التصديق بالحسنى » أي الايمان بالمثل العليا ، والفضائل الخلقية ، والا كان عطاء مجرداً يرتبط بالماديات العاجلة ، وكل عطاء ينحصر في المادة ، أو يدور في فلكها ، ويتغيّتها مقصداً أسمى ، ليس وراءه من غاية ، لا يرقى بالضرورة ، الى معنى « العطاء الانساني » في دوافعه وغاياته ، ولا يعبر بداهة ، عن قيمة من القيم التي ينبغي أن يتجه مطلب المادة الى تحقيقها معها ، ارتقاءً بالانسان الفرد والمجتمع الى مستوى كمالاته ، ولن يضر مجتمعاً أو أمة أن تعيش مادياً ، أو حضارة مادية خالصة ، ولكنها لا تملك القدرة أن تعيش « انسانياً » الا بالمثل العليا ، والقيم الحضارية التي من شأنها أن تحفظ « التوازن النفسي » بين مطالب الجسد المادية ، ومطامح النفس والروح القيمية ، والا كان الاخلاص الى الأرض ، واتباع الهوى ، واختلال التوازن بالضرورة .

على أن القرآن الكريم - اهتماماً منه بالعطاء المطلق - فكرياً ، ووجدانياً ، ومادياً - تراه يقدم هذا العطاء على « منطلقاته » وبواعثه في منطوق الآية الكريمة ، بقوله عز وجل : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » مع أن منطلقات العمل ، وبواعث العطاء ، أسبق في الوجود ، وفي هذا التقديم المخالف لسنن الوقوع ، ايعاء قوي بأن المقصود من القيم ، والمبادئ ، هو العمل بمقتضاها ، وليست مقصودة لمجرد التفكير والنظر ، حتى تبقى في حيّز التجريد الذهني ، تجد هذا صريحاً في النص القرآني : « فأما من أعطى واتقى » إذ « التقوى » هي مبعث العطاء واقعاً ، فكان من حقها التقديم ، ولكن قُدم العطاء عليها في النص ، اهتماماً بشأنه ، ولكيلا تبقى « التقوى » أمراً نفسياً ، أو معنىً قلبياً ، مفرغاً من مضمونه العملي ، أو مقتضاه الواقعي ، لمنافاة ذلك لحقائق الحياة ، وسنن الله في الوجود ، وبيان ذلك : أننا قدمنا ، أن القرآن الكريم ، اذ يجعل الأمل ، أو الرجاء معقوداً بالعمل ، أو العطاء - صيغة أو مدلولاً - عقْد الشرط بالجزاء ، على نحو مُحْكَم لا انقصاص له ، في مثل قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاءَ »

ربّه ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» (٦٠) فانما يؤصل سنّة ، وقاعدة ذهبية ، في الوجود الانساني ، مفادها : أن العمل ، والكدح ، والعطاء ، هو أساس الرجاء اذ لا رجاء ، ولا أمل ، دون عطاء وعمل - تلك سنّة الحياة والأحياء ، في المفهوم القرآني ، بل العمل هو مسوِّغ الاستجابة للرجاء ، والضراعة ، والدعاء ، كما أشرنا ، ومبرر العون الالهي على تحقيق مضمونه ، فكان الرجاء ايجابياً ضرورة ، بصريح النص القرآني الذي تلونا ، هذا ، وتفسير كون الرجاء معقوداً بالعمل والعطاء ، سنناً عاماً ، وقاعدة مستقرة ، وحقيقة من حقائق القرآن الكريم ، أن « العمل » في كافة موارد استعماله في القرآن الكريم مقصود به أداء أمانة « الرسالة » وانفاذ التكليف ، حتى كان بمفهومه هذا ، مستغرقاً كافة وجوه النشاط الانساني - فكرياً ووجدانياً ومادياً - كما أشرنا ، وبيّناث الايمان الخالص بالله عز وجل ، ليكون العمل تعبيراً عن القيم ، أو تجسيداً لها ، ولذا سمي « عملاً صالحاً » وليس مُطلق عمل ، فاذا أدركنا هذا المعنى الشامل للعمل في مفهومه القرآني ، منعكساً على « ايجابية الرجاء » استلزم أن يكون هذا الانعقاد المُحكم بين العمل والرجاء ، سنناً اليهاً عاماً ثابتاً ، ونافذاً في الحياة الانسانية بعامّة ، هو من وضع الله تعالى تكويناً ، كما ترى .

ومفاد هذا ، بل ومقتضاه ، أن كل أمر يفقد أساسه أو شرطه المنصوص عليه صراحة ، أو المفهوم دلالة ، يسقط اعتباره في حكم القرآن الكريم ، تبعاً لذلك ، من قبل أنه اخلال بسنّة ثابتة مضطردة نافذة رسمها القرآن الكريم ، منذ نشأة الخلق الأول ، لقوله سبحانه : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » ، وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورًا » (٦١) بل يغدو هذا الاخلال - بانتفاء الشرط - ، اثماً كبيراً ، ولا سيما اذا كان ذلك من مقتضيات الاعتقاد ، وسنن الوجود الذي قصد الشارع قطعاً ، أن يسلك سبيله المؤمنون ، وأن يلتزموا بمقتضاه ، ضماناً لتحقيق ما يؤملون ، ولتتم الاستجابة لما يرجون !!

وانما قلنا ، ان اطرّاح العمل بالشرط ، أو تعطيل مقتضى السنن التشريعي ، في مثل هذه الحال ، يغدو اثماً كبيراً ، فذلك ، لمكان « مضادة » الشارع فيما قصد و « معاندته » فيما وضع من سنن يستقيم بها أمر الحياة الانسانية ، لتتخذ وضعها الصحيح ، أعني لمناقضته سبحانه في عدم اتخاذ ذلك « الأساس العقائدي »

الذي أقام «الرجاء» عليه ، وعقده به عقد الشرط بالجزاء ، اذ من البدهي أن الشارع الحكيم لا يتصور أن ينص على ذلك الأصل بنص صريح أمر عبثاً ، ولا تحكماً ، ولا اعناتاً ، بل المنظور في حكمة وضعه ، أنه به يتم النظام الشرعي العام في الحياة الانسانية اعتقاداً وعملاً ، تحقيقاً لمقاصده فيها ، ولاستقامة أمرها على الوضع الصحيح الذي وضعها الله تعالى فيه ، كما أشرنا ، وهو - سبحانه - الحكيم العليم فيما سنّ وشرّع ، فكان هذا الاقتران المستحكم بين العمل والرجاء ، أو الأمل وتنفيذ التكليف ، سنناً ثابتاً شرعاً بصريح النص القرآني ، مما ينبغي أن تدرك حكمته ، ومعقوليته ، بما تولّد هذه المعقولة من القناعة ، وتحفز على الالتزام ، بل وتثير العزم ، والهيم الكامنة الصادقة المؤمنة على بذل الجهد المخلص المُغيّاً بتحقيق الأمل المرجو ، بل والمضي حثيثاً في تقديم المزيد من العمل والعطاء المطلق - في حدود السعة - بتأثير صدق الاعتقاد ، وتفاعل النفس الانسانية به !

ويؤكد هذا المعنى ، قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدّق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » (٦٢) .

ووجه الدلالة ، أن العطاء عمل ، وبهدف مُتعلّق العطاء (٦٢) ، كان مطلقاً ، يشمل العطاء المادي ، والمعنوي ، بجميع صنفه وطبائعه ، ومصادره ، من المال ، والفكر ، والخبرة العلمية ، في الصناعة والطب والزراعة ، والتجارة وسائر فروع العلوم الانسانية والعملية التجريبية ، لاطلاق النص ، غير أنه عطاء مقيد بالقيم الانسانية ، والمثل العليا ، وملتزم بها ، لا مطلق العطاء ، تلك المثل المُعبّر عنها بـ «التقوى والتصديق بالحسنى» تطهيراً لبواعثه ، وسمواً بغاياته ومقاصده ، فيغدو بذلك عملاً انسانياً نافعاً ، وذاقيمة ذاتية ، بما يحقق من جدوى ، وما يترك من أثر في المجتمع الانساني ، وتقدمه وازدهاره .

هذا ، وبامعان النظر في مفاد هذه الآية الكريمة ، يرى أنها تُرسي أصلاً عاماً ، أو سنناً الهياً ثابتاً أيضاً ، مؤداه : أن العطاء بباعث من القيم الانسانية العليا ومعالي الفضائل مُغيّاً بمثلٍ أعلى يتجه الى تحقيقه - وهو مقتضى العقيدة الصحيحة - هو سرُّ «اليسرى» و«الحياة الهانئة المطمئنة المستقرة العزيزة

المرجوة» وجاء الحث في هذه الآية الكريمة على العطاء باطلاقه مقروناً بالترجية ، والبشرى ، وهي « التيسير للبشرى » من قبل الله تعالى ، وتسهيل السبل المؤدية اليها ، بما يفيد « العون » منه سبحانه ، والتأييد والتسديد ، والتوفيق والنصر ، والاستقرار ، في كافة شؤون الحياة ، لا في الجهاد القتالي خاصة ، تحقيقاً للأمل المرجو في الحياة الانسانية المثلى التي عبّر عنها بالبشرى ، فكان العمل المعطاء مقروناً بالأمل ، والرجاء دوماً ، وجاءت البشرى و « الترجية » تأكيداً لهذا الاقتران ، وطلباً جازماً لعقد الرجاء بالعطاء - كما ترى - ثم أعقب هذا بما هو على النقيض من هذا السنن الالهي تماماً ، ليفيد أنه تحرّف عنه ، وخروج عليه ، بقوله سبحانه : « وأما من بَخِلَ واستغنى ، وكَذَّبَ بالحسنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » أي في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك الشقاء ، وضنك العيش ، والمذلة ، والهوان ، وعُسْر الحياة ، مصداقاً لقوله تعالى : « ومن أَعْرَضَ عن ذكرى ، فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً »^(٦٤) وفي هذا من « التخويف » بسوء المصير ، جزاءً لقطع العطاء عن الرجاء ، أو على قطع العطاء والرجاء في الله تعالى معاً ، استغناءً عن توفيقه وعونه ، وتكذيباً بآياته ، وتحللاً من القيم والفضائل التي ينبغي أن تكون منطلقات أساسية للسعي المسؤول ، وبُغلا وأنانية ، وأثرة ، بالامساك عن البذل ، ولا سيما في المنافع العامة ، ومرافق المجتمع ، وليس هذا من شأن المؤمن الحق في المجتمع الانساني الذي صاغه الاسلام .

اذن ، هناك سنَّتَان متضادتان - كما ترى - مفهوماً ، ونتائج ، في الحياة الانسانية : فالأولى تجعل العطاء المطلق - بما يقوم على الايثار والتضحية ، والتكافل الحقيقي بين الأفراد بعضهم قبل بعض ، وبين الفرد والمجتمع ، وبين الفرد والدولة والمجتمع ، معاً ، في جميع شؤون الحياة ، لاطلاق النص - أقول : الأولى تجعل العطاء المطلق ، هو أساس الترجية ، بتيسير البشرى ، أي التوفيق الى تحقيق الحياة الانسانية الفاضلة المستقرة العزيزة ، المرجوة ، وبانتفاء شرط « العطاء » لا يكون للترجية وجه ، ولا أساس ، بل يكون « النقيض » وهذه هي السنَّة الأخرى المضادة .

على أن هذا النقيض ، كان مفهوماً لزوماً وضمناً ، لولا أن القرآن الكريم قد

حرص على ترسيخ سنة ثابتة أيضاً ، بصريح النص ، - لا بمعناه اللزومي أو مفهومه المخالف فحسب - اهتماماً بشأنها وعظيم خطرها : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيصره للعُسرى »* .

هذا ، والبخل لا يكون الا عن غريزة الأنانية المفسدة التي تعني الحرص على المادة ، والانعطاف على الذات ، دون اكتراث بالغير ، أو التفكير في العمل على سداد حاجاته ، والوفاء بمطالبه ، والتعاون معه تعاوناً يستقيم به أمر حياتهما ، تضامناً ، وتكافلاً عاماً ، فكان التحول عن سنن العطاء ، والايتار ، الى النقيض من البخل والأنانية ، إثماً كبيراً ديانة - كما ترى - لما قلنا من أنه تحريف عن معدلة الطريق ، ومؤذن بشقوة الحياة ، وعُسر العيش ، واختلال أو تعطيل لما تقتضيه سنة الحياة الانسانية ، بما تستلزم من آثار حتمية هي وبال عليها ، لذا كان « التخويف » في آية أخرى ، بيناً وبصورة أقوى ، لما لهذا الانحراف عن سنن العطاء المطلق من خطر عظيم ، وسوء العقبى ، في قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يوم القيامة » وباطلاق مُتَعَلِّق الايتاء ، دلالة على التعميم البدلي ، ليشمل البخل المادي ، والمعنوي ، على سواء ، مما تفتقر اليه الأمة في حياتها ، سواء أكان متعلقاً بكيانها الاقتصادي أم العسكري ، أم الاجتماعي أم السياسي ، أم العلمي ، اذ الناس متفاوتون فيما أوتوا من الفضل ، مالا ، وعلماً ، وخبرات ، مما يتعلق بشؤون الحياة كلها ، ولذا جاء النص مطلقاً ، في قوله تعالى : « يَبْخُلُونَ بما آتاهم الله من فضله » وبالمفهوم المخالف ، يدل على أنهم مطالبون بالعطاء المطلق حتماً ، تأكيداً للسنة الالهية التي قررتها الآية الكريمة السابقة التي تلونا ، فمنطوق الآية الكريمة ، ومفهومها المخالف ، يسيران في منطق تشريعي متسق ، ويستهدفان غايةً واحدة ، كما ترى !

هذا ، وليس المقصود بالبخل هو التقتير على النفس فحسب ، بل من المقصود أيضاً البخل في سبيل النفع العام ، ولا سيما الجانب المهيض في الأمة ، من العجزة والفقراء ، والمساكين ، واليتامى ، ومن اليهم ، ولو كان مسرفاً على نفسه !!

على أن القرآن الكريم قد صاغ هذه السنة التي هي على النقيض من السنة السابقة ، بأسلوب آخر ، لا يخرج عن أسلوب عقد الشرط بالجزاء ، في

قوله تعالى : « ومن يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأولئك هم المفلحون » ، فلاحاً دنيوياً وأخروياً .

هذا ، ويشير القرآن الكريم ، الى أن « الأنانية » و « الأثرة » التي تورث « الشح » ، غريزة طفولية ، وليست سجية روحية ، ولا قيمة انسانية ، وأن هذه « الغريزة » لم تحظ بالانتفاع بالتوجيه الالهي ، أو تنل حظاً من الوعي الاجتماعي والانساني الذي طالما أيقظه القرآن في الانسان ، بتوجيهاته في مواضع كثيرة من آيه ، ومنها الآيات الكريمة التي نحن بصدد الاستدلال بها ، بل قد نبه القرآن الكريم الى وجوب أن يقي الانسان نفسه مما تمليه عليه هذه الغريزة العمياء ، وأفهمه أن « فلاحه » الدنيوي والأخروي ، رهن بالاتقاء من نزعاتها واملاءاتها ، في مثل ما تلونا آنفاً من قوله تعالى : « ومن يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأولئك هم المفلحون » ، ربطاً للفلاح المطلق ، بمناط التخلص من نزعة الشح والأثرة ، النابعة من نفسه غريزة ، ليتحول الى الايثار والعطاء المطلق ، سجية روحية ، وقيمة انسانية ، وساق له « البشرى » في تيسير سبل الحياة الانسانية المثلى ، اذا استنَّ هذا السنن ، بقدر الطاقة والاختصاص .

ق - تاصيل « جهة التعاون » في القرآن الكريم ، يؤكد هذا السنن الالهي في العطاء المطلق .

أيقظ الاسلام في الانسان وعيه الانساني والاجتماعي ، بارساء مبدأ « التعاون » باطلاق ، ليشمل كافة صور « التعاون » على البر والخير الانساني العام ، بين الفرد والفرد ، والفرد والمجتمع ، وبين الفرد والمجتمع والدولة ، وبين الدولة وغيرها من دول العالم ، تواصلاً حضارياً ، وعلى أعلى مستوى ، ما دام لا يتعدى نطاق الخير المشترك ، والبر الانساني العام ، أو المصلحة الانسانية العليا ، في كافة مجالات الحياة الفاضلة ، تدعيماً لها ، وعملاً جاداً على تقدمها وتنميتها وازدهارها .

وعلى هذا ، فان مبدأ « التعاون » من أصل المبادئ الاسلامية التي تحقق معنى « التكافل الانساني » في شتى المجالات - المادية والمعنوية - تكافلاً عاماً وملزماً ، محافظة على « حق الغير » فرداً كان أم أمة - سواء على الصعيد الداخلي أم الدولي - دون انتقاص ، أو اضرار أو اساءة ، وليكون كل من الفرد والمجتمع ،

والدولة ، بل والدول ، في كفالة الآخر ، وهذا تكافل انساني عام ، لهذا ، كان « الايثار المطلق » الذي جعلته الآية الكريمة من « صميم التقوى » - عطاءً وبذلاً - ومن مقتضيات « التصديق بالحسنى » « والقيم الانسانية والفضائل الخلقية ، والكمالات النفسية » أقول كان هذا « الايثار » هو المسوِّغ لاستجابة « الرجاء » في تحقيق الأمر المرجو من الحياة الانسانية العزيزة الهانئة المستقرة المنية التي عبّر القرآن الكريم عنها باليسرى ، رجاء معقوداً بالعطاء ، تلك « سنة الحياة الانسانية » في المفهوم القرآني ، ولن تجد لها تبديلاً ، لقوله تعالى : « وتعاونوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (١٥) وليس ثمة من بديل يفضل هذه السنة الكونية الثابتة التي تستلزمها الفطرة الانسانية ، نفسها ، بما هو أسلوب تربوي يعالج اسراف غريزة الأنانية والشح ، كما ترى !!

على ان الايثار المطلق ، اذا كان أمراً لا تستقيم الحياة الانسانية - بمعناها الأمثل والأكمل - الا به ، فان هذا « الايثار » - فضلاً عن ذلك - شرط أساسي لتمكين الفرد نفسه من تحقيق مصالحه هو - بما هو كائن اجتماعي في المقام الأول - ولا يمكن أن يتم له ذلك الا عن طريق « التكافل الاجتماعي » اذ لا يسعه العيش الا في وسط اجتماعي ، يؤمّن له مصالحه ، ويمنحه الفرصة الكافية ، لتنميتها ، والا فان هدم المصالح العامة أو عدم رعايتها ، ينعكس أثره على الفرد نفسه ومصلحه ، بالخسار والاضمحلال ، أو الضرر الفاحش ، ضرورة •

ت - الايثار المطلق - في المفهوم القرآني - ليس مجرد عطاء مادي ، وانما هو - باستمداده بواعثه ، وغاياته من معين « التقوى ، والتصديق بحقائق الفضائل - سجية روحية ، نفسية ، تنهاوي أمامها ، كافة الاعتبارات المادية عند التعارض •

هذا ، واذا كان « العطاء المطلق » مشروطاً بالتقوى ، والتصديق بالفضائل المعبّر عنها بالحسنى ، بنص الآية الكريمة ، فذلك ، ليمحض هذا العطاء - بشرف بواعثه ، وسمو غاياته - أن يكون انسانياً ، بلا ريب ، لأن العقائد الاسلامية ، ومثلها العليا ، تُخلص العطاء الى المعنى الانساني الرفيع ، كيلا يكون مطلق عطاء •

خ - فرق بين مطلق العطاء ، والعطاء المطلق ، في المفهوم القرآني •

وهذا يتأدى بنا الى وجوب التمييز بين مطلق العطاء ، والعطاء المطلق •

أ - فالأول ، غير مشروط في أصله ، بالتقوى ، ولا بتصديق قيم الفضائل والحسنى ، ولا بالايان والمثل الانسانية العليا ، فينطبق على كل عطاء ، ولو مجرداً ، وهذا غير جار على سَنن المشروعات في القرآن الكريم - كما رأيت - من قِبَل أنه اشترط في العطاء ، التقوى صراحة ، باعثاً وغاية ، واعتقاداً ، وكذلك التصديق بالحسنى ، بنص الآية الكريمة التي تلونا •

ب - وأما الثاني ، فهو عطاء مقيد في أصله بشرط التقوى ، ومبادئ الاسلام ، وقيمه ، وان كان مطلقاً في أنواعه ، ليشمل المادي والمعنوي ، كما بينّا ، فكان معنى أخص •

الأمر بالعطاء المطلق ، يستلزم عقلاً وجوب تحصيل ما يُعطى أولاً ، اذ فاقد الشيء لا يُعطيه كما يقولون •

هذا ، والمؤمن الحق ، اذ يرجو منه تعالى تحقيق آماله معقودةً بالعطاء المطلق - اذ لا يتصور استغناؤه عن عون الله ، وتوفيقه ، ونصره ، سبحانه - غير أنه لا يتصور أيضاً أن يتم عطاء من الانسان لشيء لا يملكه ، أو لم يكن قد اكتسبه فعلاً ، لأن هذا من المحال ، فدلّت الآية الكريمة في قوله تعالى : « وأما من أعطى واتقى » دلالة لزومية عقلية ، على وجوب تحصيل ما لا يتأتى العطاء الا به ، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه ، بمعنى أن العطاء فرع عن امتلاك ما يُعطى ، فكان الأمر بالعطاء ، أو الايثار المطلق ، مستلزماً لوجوب تحصيل ما يُعطى أولاً ، لزوماً عقلياً ، ومن هنا ، وجب تحصيل ما تتعلق به العطاءات على اختلاف طبائعها وألوانها ، فالعطاء من المال ، يوجب تحصيله ، وتنميته ، بالطرق المشروعة ، ليتأتى منه الاعطاء ، والسخاء فيه ، كما يجب تحصيل العلوم الانسانية ، وفروع العلوم التجريبية ، مما تفتقر اليه الحياة الانسانية ، من الهندسة ، والزراعة ، والصناعة ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب ، والصيدلة ، وما اليها ، ليتمكن المتخصصون فيها من « العطاء » على الوجه الأمثل والأجدى ، والأجود ، كل وما اختص فيه ، وهذه سنّة الهية ثابتة وقدّر مقدور ، لا يتم نجاح الأمة الا بها ، ولا تنعم بحياة انسانية فاضلة ، دون أن تسلك سبيلها ،

ثم جاءت « الترجية » منه تعالى ، للحث على « العطاء » في آيات أخرى كثيرة ، لتفيد : أن « مثقال ذرة من خير عملاً ، لا يضيع في ميزان التقدير والثواب جزاء » ولا ريب أن « الخيرية » بمفهومها الشامل ، تتناول الابتكار والابداع والتجديد النافع ، لأنه أمر زائد عن أصل العمل الصالح ، اذ هو تجويد له ، واتقان ، أو انشاء لخير جديد لم يكن ، مصداقاً لقوله تعالى : « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » (٦٦) ، ولقوله عز شأنه « ولكل درجات مما عملوا » (٦٧) وفقاً للجودة والأثر ، وفي هذا من الترجية والتبشير بتفاوت الجزاءات مالا يخفى !!

ذ - ان لشرط صدق الاعتقاد بالفضائل والحسنات ، والايمان بالمثل والمبادئ وعنصر المعقولة في التشريع مما اتخذ القرآن الكريم أسلوباً في معالجة النفس الانسانية - أثراً فعالاً في تنمية الطاقات والملكات ، وتوجيهها الى « تخير » نوعية العمل - ببواعثه ، ومضمونه ، ومتعلقاته - صلاحاً ، واتقاناً ، وجودة ، بل وابداعاً وابتكاراً ، دون الاجتزاء بأصل العمل الصالح فحسب .

وعلى هذا ، فان لشرط صدق الاعتقاد ، والايمان بالمثل والمبادئ ، وعنصر المعقولة في التشريع ، أثراً فعالاً في توجيه الطاقات والملكات البشرية - الى تخير « نوعية » العمل صلاحاً ، واتقاناً وجودة ، بل وابتكاراً وابداعاً ، لا الى الاجتزاء بأصل العمل الصالح فحسب ، لأنه داخل في معنى « الخيرية » - كما بيئنا - بل مشمول بصريح قوله عز وجل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » (٦٨) . اشارة الى الأجود والأفضل ، والأحسن ، لا الى الحسن فحسب ، وهو ما طلبت السنة أيضاً اتقانه وتجويده من قوله ﷺ : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً ، أن يتقنه » . كما أشارت السنة أيضاً ، الى « تقسيم العمل وفق الاستعداد الفطري » لكل فرد ، اذ به يتم الاتقان والجودة ، في العمل ، والابداع فيه ، حسب الاختصاص ، بقوله ﷺ : « كل مؤسر لما خلق له » وهذا هو أساس عمارة الدنيا ، وبناء حضارة الانسان الذي جاء مفروضاً على المؤمنين ، بحكم الله في قوله عز شأنه : « هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها » (٦٩) أي طلب اليكم اعمارها ، وتغيير وجه الأرض ، احياءً ، واستثماراً لخيراتها ، وكنوزها ، واشادة ، وتحضيراً ، فضلاً عن تجميلها وتزيينها ، تحقيقاً لمعنى التسخير ، وانفاذاً لحقائقه .

وتأسيساً على هذا ، فان « الانسان العام » - أفراداً ، وشعوباً ، وأممًا - في ضوء الحكمة القرآنية - قد خلق للأمل ، والعمل : أشرفه ، وأحسنه ، وأجوده ،

تعبيراً واقعياً حياً عن أمهات الفضائل التي صدّق بها - قلباً وعقلاً - مصداقاً لقوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » اذ لا يُجْزَىء التصديق بها دون تحقيقٍ لمعانيها ، تعاملاً وسلوكاً ، بل ترى القرآن الكريم يقدم العطاء والعمل على التصديق بنص الآية الكريمة التي تلونا ، اهتماماً بشأنيهما ، مع أن التصديق أمر نفسي^١ سابق في الوجود ، كما أسلفنا ، وهذا في نظر العقل والشرع - هو حقيقة الرجاء ، في مفهومه القرآني ، مفرغاً من محتوى « الأمانى » تمييزاً حاسماً بينهما ، مصدراً ، ومفهوماً ، وحكماً ، وهو ما سنتناوله بالبحث مفصلاً في العدد القادم ان شاء الله تعالى .

هذا ، وبالله التوفيق !

الدكتور محمد فتحي الدريني
عميد كلية الشريعة
رئيس قسم العقائد والأديان
جامعة دمشق

★ ★ ★

□ الحواشي :

- | | |
|--|---|
| <ul style="list-style-type: none"> ٢٢- النساء/ ١٢٠ . ٢٣- النور/ ٢١ . ٢٤- النساء/ ١٢٢ . ٢٥- التوبة/ ١١١ . ٢٦- الكهف/ ١١٠ . ٢٧- العجر/ ٣ . ٢٨- الانشقاق/ ٦ . ٢٩- الأعراف/ ١٧٦ . ٣٠- جاء في الحديث الشريف : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه » . ٣١- سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٥٥ - تحقيق المرحوم الشيخ محيي الدين عبد الحميد . ٣٢- الكهف/ ١١٠ . ٣٣- نوح/ ١٢ . ٣٤- الكهف/ ١١٠ . ٣٥- الموافقات - ج ٣ ص ٣٨٥ . ٣٦- الذاريات/ ٥١ . ٣٧- الكهف/ ٢ . | <ul style="list-style-type: none"> ١- الموافقات - ج ٣ - ص ٣٥٨ - وما يليها . ٢- المرجع السابق . ٣- أي عن مثلي الرجاء والغشبية . ٤- الكهف - ١٠٧ . ٥- النجم/ ٣٩ . ٦- النساء/ ٧٤ . ٧- النساء/ ٧٥ . ٨- الكهف/ ٥ . ٩- الحج/ ٤٠ . ١٠- العنكبوت/ ٦٩ . ١١- محمد/ ٣١ . ١٢- الكهف/ ١١٠ . ١٣- الأعراف/ ١٧٦ . ١٤- الموافقات : ج ٣ ص ٣٥٨ . ١٥- البقرة/ ٣٠ . ١٦- البقرة/ ٢٠٥ . ١٧- الأحزاب/ ٣٩ . ١٨- النحل/ ٩٦ . ١٩- الكهف/ ٤٦ . ٢٠- الملك/ ٢١ . |
|--|---|

٥٤- الزمر/ - جاءت هذه الآية المتضمنة معنى التخويف تالية للآية السابقة التي ترف البشرى والترجىة على وجه أقوى ما تكون فيه الترجىة ، وهى قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا ... »

٥٥- آل عمران/ ١٤٧ •

٥٦- الأعلى/ ١٠ •

٥٧- الحديد/ ٥٧ •

٥٨- على أنه فى ذكر المؤمنى ، ترجىة ، وفى ذكر الكافرىن تخويف •

٥٩- الموافقات : ج ٣ ص ٣٥٨ وما يليها •

٦٠- الكهف/ ١١٠ •

٦١- الأحزاب/ ٣٣ •

٦٢- الليل/ ٥ - ٧ •

٦٣- أى المفعول به للعتاء •

٦٤- طه/ ١٢٤ •

٦٥- المائدة/ ٢ •

٦٦- الزلزلة/ ٧ •

٦٧- الأحقاف/ ٩ •

٦٨- الملك/ ٢ •

٦٩- هود/ ٦١ •

٣٨- الاسراء/ ٩ •

٣٩- الزمر/ ١٧ •

٤٠- التوبة/ ٢١ •

٤١- العجر/ ٣ •

٤٢- النساء/ ١٢٣ •

٤٣- العنكبوت/ ٢ - ٣ •

٤٤- الاسراء/ ٦٥ •

٤٥- الزمر/ ٥٣ •

٤٦- يوسف/ ٨٧ •

٤٧- الاسراء/ ٩ •

٤٨- الزمر/ ٣٩ •

٤٩- يوسف/ ١٢ •

٥٠- الموافقات : ج ٣ ص ٣٦١ - للشاطبى •

٥١- المرجع السابق - فى الهامش •

٥٢- المرجع السابق •

٥٣- راجع كتابنا : « المناهج الاصولية ج ١ بحث اللفظ المفسر •

□ المصادر والمراجع :

آ - القرآن الكريم •

ب - السنة الشريفة •

ج - الموافقات فى أصول الشريعة - للامام الشاطبى •

د - سيرة ابن هشام •

هـ - خصائص التشريع الاسلامى فى السياسة والحكم - للدكتور محمد فتحي الدينى •

و - المناهج الاصولية فى الاجتهاد وبالراى فى التشريع الاسلامى - للدكتور محمد فتحي الدينى •